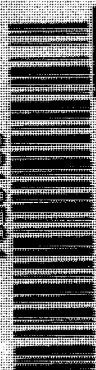
جمال الفرا
سفير سورية ووزير الخارجية سابقاً

ثلاث سنين في الكرملين

ذكريات وطرائف عن الاتحاد السوفييتي



سفراء وسفارات

ثلاث سنين في بلد لينين

ذكريات وطرائف عن الاتحاد السوفييتي وشعوبه

جمال الفرا
سفير سورية ووزير الخارجية سابقاً

ثلاث سنين في بلد لينين

ذكريات وطرائف عن الاتحاد السوفييتي وشعوبه

أسفار وسفارات

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ -١٩٩١ م

مطبعة الداودي - دمشق

المقدمة

غادرت ألمانيا الغربية قاصداً إلى موسكو لتولي السفارة فيها والحق أقول : كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى . ولكن سرعان ما أحببت الاتحاد السوفييتي واتضح لي في مقامي أن الوجه الإنساني لهذا الاتحاد حجبته عن العالم غشاوات النزاعات السياسية والمذهبية فآليت على أن أعرف بهذا البلد على حقيقته فيما له وفيما عليه .

أقول فيما له وفيما عليه ذلك أن أكثر ما نشر عن الاتحاد السوفييتي كان يركز إما على الإشادة فيما له أو التشهير فيما عليه .

وتريثت في النشر فقد كانت الحرب الباردة على أشدها وقد يرى أصدقاء الاتحاد السوفييتي فيما أورد عليه تجنياً ، وقد يرى خصومه فيما أورده له تزلفاً ، حتى جاءت الفترة الحاضرة وفيها اتفق هؤلاء وأولئك أن الأمر ليس كله بياضاً في طلعة الفجر ولا سواداً في حلكة الليل .

وآمل أن يكون للقارىء العربي من هذا الكتاب صورة صادقة عن بلد هو الأمضى رسالة والأعظم بسطة على وجه الأرض .

جمال الفرا

سفير سورية ووزير الخارجية سابقاً

بين موسكو ولينينغراد

موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتي ، أما لينينغراد فهي عروسه ، ليس من مدينة في طول الاتحاد وعرضه تقاربها في الأناقة والجمال .

في موسكو طابع التاريخ العريق وروح آسيا والشرق .

في لينينغراد طابع الحداثة وروح أوروبة والغرب .

في موسكو أسوار الكرملين وقبب الكنائس الأرثوذكسية وهي من صميم روسيا .

في لينينغراد حدائق ودارات وقصور أدخلت عليها اقتباساً من فرنسا وإيطاليا .

في موسكو معالم خلفها القياصرة والنبلاء وأثرياء التجار وأنجزها الروس .

في لينينغراد معالم أتى بها مهندسو الماء من هولندا وبناة المرافىء من بريطانيا والفنانون من إيطاليا .

في موسكو يقوم تمثال لينين منتصباً على قدميه وكأنه يعرج في السماء يحدب على الجماهير من حوله ويشير بيمناه في اتجاه جبال الأورال وما وراءها ... إلى الشرق .

في لينينغراد يقوم تمثال بطرس الأكبر على صهوة جواده وحيداً في عليائه ، وقد نهض الجواد على ساق واحدة فوق كتلة ضخمة من الصخر في توازن عجيب ، يشير بيده إلى بحر البالطيق وما وراءه ... إلى الغرب .

في موسكو ، المدينة الشعبية ، يعيش خلائط من شعوب الاتحاد السوفييتي من المونغول والتيرغيز والتاجيك ....

في لينينغراد المدينة المترفعة الروسية ، لا يقبل عليها هؤلاء الناس ولا يطيب

لهم العيش فيها .

موسكو قديمة أكل الدهر عليها وشرب وليس من اليسير تحديد منشئها في ماضي العصور .

لينينغراد حديثة شابة ولدت في مطلع القرن الثامن عشر فما بلغت الثلاثة قرون من عمرها ، وهي في مقاييس أعمار المدن إلى الفتوة أقرب .

موسكو نمت واتسعت في بطء ورتابة ، كالأراضي الرسوبية ، مع تقلب الأجيال وكرّ الزمان .

لينينغراد برزت فجأة كالصخور البركانية ، في مغامرة ثورية في أعنف ما تكون الثورات .

أراد القيصر بطرس الأكبر أن يفتح بلاده على أوروبا فصمم على بناء مدينة تطل على الغرب لتكون النافذة والعاصمة الجديدة متحدياً في هذا الطبيعة والتاريخ والكنيسة والشعب :

تحدى الطبيعة في اختيار بقعة من حوض نهر « النييفا » لا تصلح للبناء ، يتجمد فيها النهر تارة ويفيض أخرى ، وتمتد فيها المستنقعات .

وتحدى التاريخ فما سبق لقياصرة روسيا أن غادروا موسكو وقصر الكرملين .

وتحدى الكنيسة فقد كانت قواعدها راسية في موسكو منذ بعيد الزمان فرأى أحبارها في هجر موسكو بدعة وضلالة .

وتحدى الشعب ، نبلاءه وعامته ، فقد ألف القوم موسكو وأحبوها فما شأنهم بمستنقعات نهر النييفا الموحشة النائية !

وتغلبت إرادة القيصر الشاب على كل هذه العقبات وتحقق حلمه فكانت

بتروغراد ــ أو سان بطرسبورغ ــ ، وهلك في بنائها آلاف الضحايا من العمال وكلفت ما لا يقدر من الأموال ولكنها زهت كعاصمة ناشئة فتحت صدرها للغرب واستضافت ، من ثم ، فلاسفة وفنانين ، وشهدت من الليالي البيضاء ما شاء لها عمرها القصير .... حتى قامت الثورة الحمراء .

أدرك لينين أن موقع بتروغراد لا يصلح كعاصمة للثورة ثم أنها لا تستقطب شعوب الاتحاد السوفييتي وما دخلت قلوبهم فكان أن أعاد العاصمة إلى موسكو منذ بداية الثورة . وشاء عبث الأقدار أن يبدل اسم المدينة التي هجرها فتدعى باسمه « لينينغراد » !

لم يطل العهد ببتروغراد كعاصمة : حوالي قرنين اثنين من الزمان ، ولكنها بلغت فيهما شأناً رفيعاً ما سبق في التاريخ أن بلغته مدينة في هذه الحقبة القصيرة في أعمار المدن . تلألأت ثم خبت ، وهي في ريعان الشباب ... وكذلك شأن كواكب الأسحار ...

واليوم تعيش لينينغراد ، أرملة بطرس الأكبر ومطلقة لينين ، منطوية على نفسها ، وتحن إلى أمجادها السابقة باعتزاز وتتعالى على موسكو « القرية الكبرى » في دلال .

وختاماً لا يجوز التحدث عن لينينغراد دون الإشارة إلى متحف « الأرميتاج » فيها ، والغريب أنه قلما يرد ذكر متحف الأرميتاج في معرض الحديث عن المتاحف الكبرى علماً أنه في نظر العارفين أعظم متاحف الأرض في غنى مجموعاته الفنية النادرة من الشرق والغرب ، ومن القديم والحديث ، ويذهب بعضهم إلى القول إنه لو جمعت كل كنوز متاحف اللوفر في باريز والبريطاني في لندن والبرادو في مدريد لما عادلت ما في متحف الأرميتاج .

والظريف حول هذا المتحف أن القياصرة في العهد القديم كانوا مولعين بجمع

التحف الثمينة وكانوا يبعثون برسلهم إلى مدن الغرب لاقتناء اللوحات الفنية القيّمة ، وجاءت الثورة الحمراء فأبقت على كل تلك المجموعات وزادت عليها بما صادرت من مجموعات النبلاء والأثرياء .

ووصف ما في متحف الأرميتاج يحتاج إلى موسوعة كبيرة ، وكنوزه موزعة في ثلاثمائة وخمسين قاعة في عدة أبنية متجاورة ، وإنما أورد المثال التالي للدلالة :

من التقاليد الروسية القديمة تبادل الهدايا في عيد الفصح المجيد ، ويغلب أن تكون هذه الهدايا بيضوية الشكل وفقاً لعرف شائع . وقد عرضت في ركن من المتحف الهدايا التي تلقتها الامبراطورة كاترين في تلك الأعياد ، وهي مجموعات من التحف الذهبية المرصّعة بالجواهر والمزينة على سطوحها البيضوية برسوم مقتبسة من اللوحات العالمية الشهيرة ، فإذا نظر المرء إليها بالمكبرة عجب كيف استطاع الفنان إنجاز هذه الرسوم بمثل هذه الدقة على تلك السطوح المحدبة الحرجة ! فإذا ما فتحت هذه التحفة البيضوية بدا في داخلها العجب : آلة موسيقية تعزف لحناً ، أو ساعة تدل على الوقت ، أو أدوات تجميل كاملة ، أو ديك يصيح ! وكلها من معجزات الفن الميكانيكي الدقيق .

وفي إحدى زياراتي للمتحف جرى الحادث الطريف التالي :

تعرض في متحف الأرميتاج منذ عهد طويل لوحة تمثل صورة الفنان الفنلدي « رامبرانت » ، رسمها بنفسه ، وتعرض في المتحف الوطني في أمستردام لوحة تمثل زوجة « رامبرانت » ذلك الفنان الكبير أيضاً . وظلت اللوحتان واحدة في شرق القارة ، والأخرى في غربها لا تلتقيان ولا تتصلان . وأخيراً بعد مفاوضات طويلة وعسيرة تم الاتفاق بين المتحفين على إعارة لوحة الزوجة إلى متحف لينينغراد ، على أن تعار بالمقابل فيما بعد لوحة الزوج إلى متحف أمستردام . وجرى نقل اللوحة وفق احتياطات فنية دقيقة عظمى ولقاء ضمانات مالية جسيمة .

واتفق أن كانت زيارتي لمتحف الأرميتاج في الشهر الأول من اجتماع اللوحتين : اجتماع الزوجين جنباً إلى جنب في قاعة واحدة ، وكأنه شهر العسل من جديد من أمستردام إلى لينينغراد ، بعد فراق دام مائتي عام ويزيد !

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

هذا وأروع ما تكون عليه لينينغراد ، حاضرة الشمال ، في ليالي الصيف حين يتصل غسق السماء بفجر الأصباح فيغشى عاصمة الامبراطورة كاترين جو سحري من الضوء الفضي القطبي وكأن فيضاً من النور الوادع يجمع بين رحاب الأرض وأعالي السماء .

كيف حال الإسلام والمسلمين بعد ثورة لينين ؟

أحمدوف . راحمانوف . برهانوف ... هاليما . فاتيما .... أسماء تمت في أصولها إلى العروبة والإسلام .

بخارى . سمرقند . مروة ، خيوة .. طشقند ... ربوع يتصل تاريخها بالتراث الإسلامي العريق ، حملت في زمانها للعالم هدياً ونوراً وأنجبت ، بين جمهرة من الأعلام ، الإمامين البخاري ومسلم رضي الله عنهما .

ليس في الاتحاد السوفييتي إحصاءات على أساس الدين . ولكن يقدر العارفون أن حوالي خمسين مليوناً مسلماً هم مواطنون في الاتحاد السوفييتي ، ويشكلون الأكثرية العالية في ست جمهوريات اتحادية من أصل خمس عشرة .

طالما تساءلت كيف يعيش هؤلاء المسلمون في دولة نشأت على الإلحاد ومحاربة الدين ؟

قد يقال إنه لم يؤخذ رأيهم ، وما كان لهم الخيرة ، وإن أحداث الزمان عصفت بهم وانعزلوا عن العالم الإسلامي والدنيا واستكانوا وعاشوا مستضعفين في الأرض .

ترد هذه الاعتبارات إلى الخاطر ولكنها لا تقنع ولا تكفي للإجابة على التساؤل ، فليس من أحداث ولا سلطة ، مهما كان شأنها ، بقادرة على إرغام خمسين مليوناً يعمر الإيمان صدورهم .

ويأتيك بالأخبار من لم تزود : تعرفت في موسكو إلى السيد حمزة رسول ، نائب الداغستان في مجلس السوفييت الأعلى وعضو مجلس السلام العالمي . وكان بحكم مهامه يتردد على موسكو فتوثقت بيننا صلات وديّة . ذكر لي أن أباه كان مدرساً للغة العربية وقد كانت حتى مطلع هذا القرن اللغة الرسمية في

الداغستان . وردد على مسمعي آيات من الذكر الحكيم وأحاديث نبوية شريفة ، وأبياتاً من الشعر الجاهلي ، وأكد لي أنه مسلم مؤمن يتمسك بأهداب الدين وأنه أتيح له أن يؤدي فريضة الحج إلى الديار المقدسة .

كانت أحاديثي مع السيد رسول تدور في الغالب حول أوضاع المسلمين في الاتحاد السوفييتي ، وأوجز فيما يلي بعض أقواله :

إن ورود الإلحاد في مبادىء الدولة لا يعني فرض الإلحاد على المواطنين ، فإذا جاء في دستور دولة أن دينها الإسلام فهل يعني هذا فرض الإسلام على جميع مواطنيها ؟

ليس في دستور الاتحاد السوفييتي وقوانينه ما يمنع من شاء من ممارسة شعائر الدين ، بل هنالك في الواقع حرية كاملة للأديان كلها ويتجلى هذا واضحاً كل يوم لدى الشعوب الإسلامية .

إن الاتحاد السوفييتي يرعى المدارس القرآنية والمساجد والمعاهد الدينية لتخريج الأئمة ورجال الفتوى ، وينظم كل عام رحلات لألوف المسلمين لأداء فريضة الحج ، ويوفد بعثات دراسية عديدة إلى جامعة الأزهر في القاهرة .

ثم إن الاشتراكية لا تتعارض مع الإسلام بل إن الإسلام اشتراكي في جوهره وروحه وأهدافه .

كيف يعيشون في ديارهم ؟

ولست أشك في أن السيد حمزة رسول يعني ما يقول حقاً ، ولكن هذه الاعتبارات الدستورية الحقوقية والإدارية لا تجيب على تساؤلنا : كيف يعيش هؤلاء المسلمون ؟

رغبت في الاطلاع مباشرة على أحوال أخواننا في الدين فقصدت إليهم في

ديارهم . وليست هذه الديار بموصدة الأبواب ، ولا تجد السلطات العليا في موسكو حرجاً من زيارتها ، بل يغلب أن يتضمن منهاج زيارة الوفود العربية للاتحاد السوفييتي رحلة إلى إحدى الجمهوريات الإسلامية .

أول ما يشعر به المرء في هذه الربوع الإسلامية أن جو المجتمع أقرب إلى الانطلاق ويشير إلى اليسر وطيب الحال . والظاهر أن القوم راضون عما هم فيه ، وأن سوية العيش حسنة إجمالاً ، وقد كانت هذه الأقطار إلى عهد قريب ، من أكثر بلاد العالم تخلفاً ، وظني أنهم أحسن حالاً من جيرانهم في تركيا وإيران والأفغان .

شهدت مساجد عديدة ، منها القديمة ومنها الحديثة البناء تقام فيها الصلوات الخمس وتغص ظهر الجمعة بالمصلين بينهم قليل من الشباب وكثير ممن تقدم بهم العمر .

زرت مدارس قرآنية يتعلم فيها الصبية آيات الذكر الحكيم على الطريقة التقليدية القديمة ، وزرت معاهد دينية يغشاها جماعات من الشباب بالعمائم واللحى والثياب الفضفاضة ، وهم يلمون باللغة العربية ويعتز القادرون منهم بالتحدث بها . والحق أن لهذه المدارس والمعاهد فضلاً كبيراً فهي تتابع أداء رسالتها رغم كل ما أحاط بها ، وهي جديرة بالتقدير ولكن بدا لي أن القلب فيها واهن لا يساير نبض الحياة في هذا العصر : فقد احتفظت بالقديم في كل شيء ، مادة ومعنى ، بالأثاث والبسط وبطريقة التدريس والحفظ وبالكتب والمراجع ، حتى وكأنها وسط المنشآت الحديثة من حولها ، متاحف حيّة تقوم فيها مشاهد فولكلورية .

رأيت في الأحياء القديمة من المدن النساء متحجبات يسارعن الخطى لصق الجدران ليتوارين في بيوتهن ، وكأنهن يشعرن في قرارة نفوسهن أنهن لسن من

عالم اليوم ، يقابل أولئك النسوة فتيات أخذن بالحديث يسرحن ويمرحن في الجامعات والملاعب الرياضية ، وفي المكاتب والمتاجر ، لولا سماتهن وضفائرهن الطويلة لحسبتهن من بنات الغرب .

اجتمعت وطوائف من القوم فتبين لي أن هنالك فئتين ، لا تبغيان ، كل في واد : فئة الشيوخ يحنون إلى الماضي ويتحدثون عن شؤون الدين ويتحاشون الخوض في شؤون الدنيا ، وفئة الشباب يعبون مما يتاح لهم من طيبات الحياة يتطلعون إلى ما يجري في العالم ولا يتطرقون ، لا من قريب ولا من بعيد ، إلى شؤون الدين .

في هذه المشاهدات صور عن الناحية الدينية في حياة هذه الشعوب ولكنها بدت لي سطحية ، بعض الشيء ، لا تبلغ الصميم ، حتى جاءت سهرة في طشقند في ليلة قمراء .

ليلة قمراء في طشقند

الله يعمرك يا طشقند : هذه الواحة الغناء من قلب آسيا . كل من فيها يرحب أهلاً ، وكل ما فيها يبدو سهلاً ، وكأن بينها وبين دمشق قرابة وشبهاً : دوالي العنب في الدور ، وأشجار الحور على النهيرات . رافقت يوماً السيد حامد الخوجة ، وزير الزراعة في سورية إذ ذاك في رحلة إليها فلما شاهد أصناف العنب والبطيخ والتفاح والأجاص .... قال لي ، وهو المزارع ابن الفرات : ليست هذه الفواكه من إنتاج الأرض وإنما هي من الجنة !

وليالي الصيف في طشقند رائعة تحسب فيها أن قطوف النجوم دانية . وفي ذات ليلة ، عقب حفل العشاء ، جلسنا جميعاً في شرفة كبيرة تطل على السهل الفسيح من حولنا ، وأطفئت معظم المصابيح ليتجلى ضوء القمر وكان بدراً ، وأنظارنا مسمرة على السهل يتصل أفقه بالسماء . وطال السهر وطاب السمر ، تسمع المتحدث ولا تراه ، وانطلقت الألسنة ، وموسكو على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر منا ، حول الإسلام والمسلمين في هذه الديار ، فتجمعت لدي من أقوال هذا وذاك عناصر الموضوع والإجابة على التساؤل أوجزها فيما يلي :

كانت أحوال المسلمين ، في مطلع هذا القرن ، في حالة من انتشار الأمية والجهل لا تدعو إلى الرضا في أقل ما يقال ، فكان أكثر الناس يعكفون على مراسم الدين ومشكلاته لا يفقهون منها اللباب والجوهر فيما يشبه ما كانت عليه كثير من الشعوب الإسلامية تحت الحكم العثماني ، ولكن جذور الإيمان ظلت عميقة ، ثابتة ، في الصدور . وجاءت الثورة السوفيتية فأدرك زعماء الثورة هذا الوضع فتحاشوا مجابهة الإسلام وجهاً لوجه وعمدوا إلى مناورة بارعة ماكرة : في حركة التفاف لا قسوة فيها ولا عنف : تغاضوا عن الجيل القديم

وتجاهلوه واحتضنوا الجيل الناشىء ورعوه .

تركت الثورة الجيل القديم على قدمه وأبقت له المظاهر الدينية كالعمائم للرجال والحجاب للنساء ، وعنيت بالجيل الناشىء في المدارس والجامعات ، في الملاعب والمسارح ، في المكتبات والنوادي . وانطلق الشبان وتحررت الفتيات وشاركن في الحياة العامة لأول مرة في التاريخ ، وعملت أجهزة الدعاية والإعلام فدخل في عقيدتهم أمران اثنان :

الأول : أن ما ينعمون به اليوم هو من مكاسب الثورة . وهذا حق .

الثاني : أن ما كانت عليه بلادهم وأجدادهم من تخلف وجهل هو من جراء الإسلام . وهذا باطل والله يشهد والملائكة والناس أجمعين أن الإسلام بريء وإنما هي جريرة المسلمين .

وبضدها تتميز الأشياء إذ يرد إلى الخاطر ما حدث للمسلمين في الأناضول في الثورة الكمالية : بين ليلة وضحاها ، وفي مجابهة عنيفة طاغية ، حرم مصطفى كمال أتاتورك على مواطنيه كل ما يمت إلى الإسلام من المظاهر والشكليات والمراسم والأعراف : من العمائم والحجاب ، إلى الزوايا والتكايا ، إلى الورود والاذكار ... وفرض القبعة والزي الغربي على فلاحي الأناضول . عني أتاتورك بغطاء الرأس لا بما في داخل الرأس ! فكانت ثورته ، أو إجراءاته ، سطحية عابرة لم تبلغ الأعماق ، فلما قضى أتاتورك ، والحماس والإرهاب معه ، عادت ، بعد عقدين من السنين ، الدعوة الإسلامية أقوى من قبل .

كان لينين وصحبه من قادة الثورة السوفيتية أدهى من مصطفى كمال أتاتورك وأبعد نظراً : لم تجابه الثورة الدين و لم تحارب العقيدة وإنما عفت عن الأعشاب القديمة ، فقد جفت ولن يطول بقاؤها وركزت على الأغراس الفتية ، في عناية ورفق ، مستعينة بكر الأيام وتعاقب الأجيال ، وسقت هذه الأغراس من تعاليمها

فنبتت وربت في أحضانها ، وفي شبه معزل عن الإسلام . وكان أن وهن سلطان الدين وصار الإيمان تراثاً مقدساً عزيزاً يكمن في الضمير ويحن إليه القلب ، ويبدو في صلوات الجمعة والعيدين ، وفي حفلات الختان والزفاف ، ولكنه لا يسطع في سماء الحياة .

صديقي رالف سولمان سفير السويد وعميد السلك الدبلوماسي فيها سيتلو حديثي عنه كثيراً ورجعت إليه فيما يخطر لي عن الاتحاد السوفييتي ، وهو الحجة ، راجياً بيان الرأي . تلوت عليه موجز ما كتبت عن الإسلام والمسلمين فقال :

لا أعرف الكثير عن الإسلام والمسلمين هنالك وقد أفدت مما أوردته وأنت أدرى بأحوال أبناء دينك . وليس لي صلات هنا بجماعة الكنيسة الأرثودوكسية ولكن زوجتي ، وهي روسية الأصل كما تعلم ، متدينة وتقصد في أيام الآحاد والأعياد إلى كنيسة القديس باسيلوس يرعى القداس فيها صاحبك ومواطنك المطران سماحة وفق الطقوس البيزنطية القديمة الرائعة ، ويعتبرها القوم واحدة منهم يدعونها إلى دورهم ويفضون إليها بالكثير مما لا يتاح للأغراب . وإليها أدين ببعض ما عرفت عن شؤون الدين .

المعروف أن هنالك دعاية واسعة قوية تجند كل وسائل الحكم لمحاربة الدين وللدعوة إلى الإلحاد وذلك منذ قيام ثورة تشرين . والواقع أن قاصدي الكنائس قلة تجاوزوا في الغالب خريف العمر وأن الجيل الناشىء لا يُعنى بالدين لا من قريب ولا من بعيد . رغم كل هذا تظل النزعة الدينية كامنة حية في أعماق وجدان القوم .

هنالك كائنات حية غاية في الدقة والصغر تكاد تعصى على المجاهر الإلكترونية ، من أنواع الفيروس والخمائر وما إليها ، تقوى على كل الظروف

التي تحاط بها مهما بلغت قسوتها فتنكمش ويتوقف نشاطها حتى ليظن المرء أنها ماتت دون عودة ، فإذا أتيح لها القليل الأقل من الحرارة أو الرطوبة أو الوسط الغذائي عادت فانتعشت ونشطت وتكاثرت ـ قرأت يوماً أنه وجد بعض هذه الكائنات في حفنة تراب بمبنى أهرام لأحد الفراعنة استطاعوا بعثها حية بعد رقاد دهر طويل .

وكذلك الإيمان الديني يكمن حياً في أعماق الوجدان والوعي تتوارثه الأجيال لا تبلغه شرور الإلحاد والإرهاب قد تقدر على حبسه ووقف نشاطه ولكن لا سبيل إلى فنائه فإذا هبت نسمة أولى من الحرية عاد ناشطاً سوياً .

والشعب الروسي ، رغم المظاهر في الحاضر ، من أقوى الشعوب نزعة إلى التدين فهو طوال تاريخه محروم متعب صابر يجد في الإيمان الديني فرجاً مما يلقاه وأملاً فيما يتطلع إليه .

وفي هذا التبس الأمر على كارل ماركس فظن ، وبعض الظن إثم ، أن الدين أفيون الشعوب ، ولعل كراهية الدين أعمت بصيرة هذا الملحد الشيوعي الكبير فغاب عنه ، وهو العبقري الفذ ، أنه لا غنى للمرء في صحراء الحياة ومشاقها من إيمان ديني فيه الأمن والسكينة ، وفيه التسرية والهدى .

استمعت إلى السفير سولمان وقلت في نفسي : من يدري ؟ بودي لو أعود إلى طشقند بعد ثلاثين عاماً .

الأمير فلاديمير

في حفل في قصر الكرملين ، وفي حلقة ضمت بعض السفراء المسلمين ، قص علينا المارشال بولغانين رئيس مجلس الوزراء ، الحكاية التالية . ويبدو أنها تاريخية واقعة ، قال :

– رغب الأمير فلاديمير وقرينته الأميرة أولغا في كييف ، وهي العاصمة القديمة ، أن يعتنقا ديناً سماوياً ، وكانا وثنيين ، وسمعا عن دين الإسلام فاستقدما وفداً من كبار علماء التتار والمسلمين ليوضحوا لهما مبادىء الدين الإسلامي . وكان الأمير يتعاطى بنت الحان ويتوق إلى الغادات الحسان . كان أول ما طلبوه من الأمير الامتناع عن شرب الخمور فابتهجت الأميرة وامتعض الأمير ، ثم أعلنوا السماح بتعدد الزوجات فابتهج الأمير وامتعضت الأميرة ... وعاد الوفد من حيث أتى .

وأضاف المارشال :

– لو كان أولئك المشايخ التتار في دبلوماسية السادة السفراء ممن حولي ، وهم يشاركون في الأنخاب مسايرة وتودداً ، لدخل الإسلام بلادنا ، ومن يدري .... ولتغير مجرى التاريخ !

وكان نيكيتا خروتشيف حاضراً فتدخل في أسلوبه الاندفاعي الارتجالي قائلاً :

– لحظت أن أكثر السفراء المسلمين يشربون النبيذ والفودكا والشمبانيا في الحفلات مما لا تجيزه الشريعة الإسلامية ، ثم إنني عرفت أن كلاً منهم يقتصر على زوجة واحدة بينما تتيح له الشريعة مثنى وثلاث ورباع .... أعجب كيف يقدمون على ما هو محرم ، ويزهدون في الحلال !

ثم التفت إلى زوجه ، وهو بارع في الجمع بين الجد والدعابة ، وأضاف :

– من سوء حظي أنني لست مسلماً !

الطبيبة والعازف على الناي

فئتان من الناس في الاتحاد السوفييتي كانتا موضع إعجابي : القواد العسكريون في تواضعهم والأطباء في إنسانيتهم .

في كثير من بلاد الله يبدو كأن القواد العسكريين جبلوا من طينة خاصة ولكن تبين لي في موسكو أن القواد العسكريين والمواطنين جميعاً جبلوا من طينة واحدة .

وقد أتيح لي في حفلات الكرملين أن أتعرف إلى جماعة من أكابر القادة العسكريين في الجيش الأحمر أذكر منهم المارشال كونييف فاتح برلين ، والمارشال تشوكوف وزير الدفاع والمارشال لودميكوف من أبطال معركة ستالينغراد وآخرين ممن علا نجمهم في الحرب العالمية الأخيرة ، كانوا جميعاً أبعد ما يكون عن التظاهر والاستعلاء والخيلاء ، وفي أحلى ما يكون عليه التواضع يحسبهم الجاهل ، لولا الهندام العسكري وشارات الأوسمة ، من أوساط البورجوازية التجارية لم يطلق أحدهم عياراً نارياً ولا شهد قتالاً .

وأرجح أن الفضل في هذا يرجع إلى طبيعة الروس وإلى خلقهم الطيب أولاً وإلى عامل له شأن في حياة الاتحاد السوفييتي وهو أن القواد العسكريين لا يعيشون منعزلين في ثكناتهم ونواديهم ولا مقصرين على المناورات الحربية وشؤون القتال وإنما ينتدبون لمهام إدارية ومدنية وسياسية في جهاز الحزب ولجانه وفروعه ، كما ينتدب المدنيون لمهام في القوات المسلحة كمفوضين سياسيين أو مرشدين عقائديين في رتب عسكرية ، وهكذا يقوم بين الجيش والحزب الشيوعي ، وبالتالي بين العسكريين والمدنيين صلات من التداخل والتلاحم قل مثيلها في أنظمة البلاد الأخرى .

أما الأطباء فقد تبين لي أن لمفهوم الطب في الاتحاد السوفييتي شأناً خاصاً :

الطب في العالم علم ومهنة واختصاص ، ولكنه في الاتحاد السوفييتي إنساني قبل كل شيء . ليس المريض فيه حالة مرضية في إضبارة وتقارير ومخططات وتحاليل .. إنما هو إنسان مريض أحوج ما يكون إلى رعاية ودية وتفهم نفسي .

كان يقدم إلى عواصم الغرب التي أقمت فيها جماعات من المواطنين للاستشفاء وكنت أعودهم ، وهكذا أتيح لي أن أشهد ما يدور في هذه المستشفيات . بدا لي أن فيها فريقين اثنين : فريق المرضى وفريق العاملين في المستشفى . بين الفريقين صلات مسلكية محددة يمليها الواجب فلا تبلغ قلب المريض ، فريقين يحذر أحدهما الآخر ، ويبرم به ويشكو منه ، ويود الخلاص .. لم ألحظ في مستشفيات موسكو مثل هذا الثنائي بل أسرة كبيرة يقوم فريق من أعضائها بالعناية بالمرضى . وفي المثال التالي دلالة :

في كثير من مستشفيات الغرب يقبع كبير الأطباء الأخصائي في ذروة الأهرام ، ومن دونه الأطباء الآخرون ، ومن حوله حاشية من الممرضات والسكرتيرات ، يكاد لا ينال ، فإذا بلغه المريض بعد لأي فلفترة محدودة حشرت بين طائفة من المواعيد ومحسوبة بالدقائق لقاء أجر كبير . في الاتحاد السوفييتي قد تلقى كبير الأطباء في رواق المستشفى يتحدث إلى من حوله في بساطة وتواضع ، يزور مرضاه دون حاشية كبيرة ومراسم ، يقضي بينهم زمناً : يقص على طفل مريض حكاية ليسري عنه ، أو يتأمل في مباراة الشطرنج بين مريضين متجاورين .. وكأنه رب هذه الأسرة ، ثم إنه لا يريد أجراً ولا شكوراً .

يقول التعبير الشعبي عن أحدهم ، إذا جمع بين الطبابة والتواضع وغنى النفس ، إنه « درويش » . أطباء الاتحاد السوفييتي ، في هذا المعنى ، دراويش .

قدم إلى موسكو وفد من الفنانين الموسيقيين السوريين في عداده السيد معن الدندشي العازف على الناي في فرقة الإذاعة . وكانت عينه اليسرى في حال من

السوء كاد يفقد الأمل منها فاغتنم فرصة وجوده في موسكو وقصد إلى مستوصف تشرين الأحمر العيني .

عدته في المستوصف مرات . كانت الهواجس تغالبه في البداية وهو بعيد عن أهله وبلده لا يعرف من لغة القوم وأحوالهم شيئاً ، وإذا به ، بعد أيام ، من أسعد الناس لما لقي من عناية وعطف ، وكأن المريض في مستوصف العيون هو ... إنسان العين .

كانت تشرف على معالجته كبيرة الأطباء الدكتورة أندريا فاسولنكا ، وتعتبره ضيفاً يتوجب إكرامه قبل معالجته فكانت تقدم إليه وتجلس على سريره تواسيه فيتناول الناي ويعزف . تمنيت لو سجلت تلك الألحان والتقاسيم أوحاها إليه ما يلقى من حنان في الغربة وما يساوره من أمل في الشفاء ، ويقبل بعض الأطباء والممرضات والمرضى للاستماع وإذا بغرفة معن وكأنها مجمع أسرة في سهرة عائلية .

وأشهد أن سلوك الطبيبة وجماعتها لم يكن خاصاً بمعن الدندشي بوصفه ضيفاً في وفد رسمي تعنى به السفارة ، بل كان من طبيعة الأمور يشمل المرضى جميعاً

كان معن يردد قوله على أندريا فاسولنكا : أفديك بعيني السليمة .. فتضحك وتقول : سنعنى بك لكي تهنأ بعينيك الاثنتين .. وهذا كاف .

وفي ذات يوم حدجتني الدكتورة فاسولنكا بنظرات عميقة طويلة ثم قالت ، في شيء من الحرج :

— لم لا تفحص عينيك ؟ لعلك تحتاج إلى نظارات ؟

وكان رد الفعل مني آنياً وسلبياً ، فما أشعر أنني بحاجة إلى نظارات ، ولكنها لم تتراجع وعادت تقول :

– قد يكون هنالك بعض التوتر والتعب والإنهاك لا تشعر به .. وإنما يستغرق الفحص بضع دقائق .. وعلى مقربة منا ..

واستجبت من قبيل المسايرة فتبين أنها كانت على صواب في فراستها وأنني أحتاج إلى نظارات يسيرة العيار كتبت لي وصفتها . ولكنني ما كدت أغادر المستوصف حتى ألقيت بالوصفة جانباً : ترى هل ولّى عهد الشباب ؟.. منذ عامين ظهرت بوادر البياض في فوديَّ ... فهل أزيد عليها بالنظارات ؟

واتفق أن غادرت موسكو بعدها في زيارة إلى بولونيا ، وكنت معتمداً فيها أيضاً ، فلما عدت بعد أسبوعين وجدت النظارات على مكتبي : تبين لي أن الدكتورة لحظت برمي بفحص العينين وتأكد لها من سكرتيرة السفارة ، وكانت ترافقني إلى المستوصف للترجمة ، أنني لم أتدبر العوينات فأرسلتها إليّ مرفقة بكلمة تقول فيها : ستذكرني بالخير .

وها إني ، يا أندريا فاسولكا ، أحس الله إليك ، أذكرك بالخير !

ثورة لينين في عيدها الأربعين

حفل لن يعيده الزمان

احتفل الاتحاد السوفييني بمرور أربعين عاماً على ثورة تشرين مس العام ١٩١٧ . حج إلى موسكو للمشاركة في هذه الذكرى الصفوة المختارة مس رجالات الشيوعية والتقدمية في أقطار الدنيا كلها . كان في طليعة الوفود وفد جمهورية الصين الشعبية ، وعلى رأسه الزعيم الكبير ماوه تسه تونغ ، غادر بلاده للمرة الأولى والوحيدة . في حلسة الافتتاح ، في ملعب لينين ، أمام خمسة عشر ألفاً من أعضاء الوفود الشيوعية والصديقة ، ألقى خروتشييف خطابه ، ثم وقف ماوه تسه تونغ ، باسم الأحزاب الشيوعبة كلها جمعاء ، يبايع الاتحاد السوفييتي بالزعامة والقيادة والتوجيه والإرشاد .

عاد إلى حاطري ، على تباين الزمان والمكان والموضوع ، يوم وقف شاعر النيل حافظ إبراهيم في حفل تكريم أمير الشعراء أحمد شوقي ، وقال من قصيدة له :

أمير القوافي قد أتت مبايعاً   وهذي وفود العرب قد بايعت معي

ساعة مجيدة في حياة الاتحاد السوفييتي بلغ فيها ، مع سن النصوج ، الأوج في مجده العقائدي .

ساعة فريدة لن يعيدها الزمان فما استمر طويلاً من بعدها ذلك الإجماع بين الأحزاب الشيوعية في العالم .

كان مهرجان الاحتفال بذكرى الأربعين عاماً ذا منهاجين اثنين : الأول يشارك فيه السفراء المقيمون في موسكو وتشرف عليه وزارة الخارجية ، والثاني يشارك فيه الضيوف القادمون إلى موسكو وتشرف عليه دائرة الصلات مع

الأحزاب الشيوعية في قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي ، وهي لا تقل شأناً عن وزارة الخارجية .

كان هذان المنهاجان يتسايران متوازيين فلا يلتقيان ولا يبغيان : ذلك أن النشاط الشيوعي محرم أو غير مرغوب فيه لدى بعض الدول الممثلة رسمياً في موسكو فلا يحرج سفراؤها بالاجتماع إلى القادة الشيوعيين من بلادهم .

كانت موسكو تعج بالوفود القادمة من جمهوريات الاتحاد السوفييتي الخمس عشرة ومن حوالي تسعين بلداً . ما أظن أنه اجتمع في مدينة ، أو يجتمع يوماً مثل هذه الحشود الشيوعية والمناصرة والتقدمية . جاءت بعض هذه الوفود من أقطار ما يظن المرء أن يقوم فيها ، إذ ذاك ، حزب شيوعي ذو شأن وأذكر من قبيل المثال : وفد جزر سيشيل في المحيط الهندي ، ووفد إمارة « لشتن شتاين » القابعة بين النمسا وسويسرا ، ووفد جزيرة سانتا لوسيا في بحر الكرائيب !

وانتشار الأحزاب الشيوعية هذا ، في كافة أنحاء المعمورة يتيح للاتحاد السوفييتي صلات عالمية واسعة المدى تتجاوز الصلات الدبلوماسية التقليدية ويتفوق بها على الدول العظمى الأخرى : ذلك أن عدد السفارات محدود وأعمالها مراقبة في الغالب ونشاطها مقيد في حدود ، أما الأحزاب الشيوعية فقد برعت ، جهاراً أو في الخفاء في كل بلد ، في إقامة صلات وثيقة مجدية . والدولة الوحيدة التي تناهض الاتحاد السوفييتي في هذا الميدان هي دولة الفاتيكان إذ أن لها ، تحت كل كوكب ، إرسالياتها ومنظماتها الدينية .

وقد يكون الاتحاد السوفييتي اليوم في غنى عن هذه الأحزاب بعد أن توطد سلطانه وبلغ ما هو فيه ، بل قد تكون بعض هذه الأحزاب عبئاً وحرجاً ، ولكنها تظل ، في مجموعها ، امتداداً عقائدياً وروحياً لسلطة الكرملين في القارات الخمس . ويشهد المرء في موسكو العديد من أبناء البلاد النامية ، ولا سيما من

لقارة السوداء ، قدموا للدراسه وبعضهم يتدربون في معاهد الحزب الشيوعي لخاصة ، وهي « مشتل » لقادة الأحزاب ورجال الحكم في المستقبل . والمعروف أن كثيرين من رجال الحكم اليوم في البلاد الناشئة ، ولا سيما في أفريقيا ، تخرجوا من جامعة « لومومبا » في موسكو .

كان على رأس الوفود الشيوعية زعماء ذوو شهرة عالمية منهم من يتولون الحكم في بلادهم وهؤلاء بلغوا ما يدعون وما يشتهون ، ومنهم من يعملون للوصول إلى الحكم في الدول الديمقراطية ، وهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ولكن كان إلى جانبهم آخرون قلما يرد ذكرهم وهم الأبطال المناضلون حقاً والقادمون من بلاد مثل جمهورية جنوب أفريقيا أو الباراغواي ، أو اسبانيا إذ ذاك ، حرمت فيها الشيوعية أصلاً وفرعاً ويلقى فيها أنصارها والداعون إليها ألواناً من العذاب والتنكيل تذهب إلى عقوبة الموت . هؤلاء يعملون في الخفاء ثم يبرزون في موسكو في مثل هذا المهرجان وكأنهم هبطوا من السماء ، ثم يعودون إلى الخفاء . إنهم لا يترقبون مكاسب أو مغانم ، ويعملون ما قد يوقع بهم وإنما هي العقيدة الصامدة فيما آمنوا به ويعملون له في براعة وشجاعة تدعوان إلى الإعجاب .

بين هؤلاء وأولئك من الوافدين إلى موسكو يندس جماعات من الانتهازيين يتمسحون بالاشتراكية أو التقدمية واصطبغوا في الظاهر بقشرة حمراء أما الباطن فخلو من أي عقيدة . قدموا إلى موسكو طمعاً في تأييدها وتأييد الحزب الشيوعي أو الاشتراكي في بلدهم للوصول إلى الحكم ومآرب أخرى . يظنون أنهم يخادعون سادة الكرملين وما يخدعون إلا أنفسهم فالدوائر المختصة في موسكو تعرف كل شاردة وواردة من ماضيهم وحاضرهم ونواياهم وإنما يتجاهل سادة موسكو كل هذا ويقابلونهم بالرعاية والإكرام ولسان حالهم : خير أن يكونوا صنائعنا اليوم من أن يكونوا علينا ... فمن يدري ما يكون شأنهم في الغد !

وإذا اجتمعت هذه الحشود بمناسبة ذكرى الأربعين عاماً فإن موسكو تفتح صدرها دوماً وأبداً لكل الشيوعيين والتقدميين اللاجئين إليها . وقد تدوم إقامة هؤلاء سنوات أو عقوداً من السنين يترقبون خلالها تطور الأوضاع السياسية في بلادهم . وفي هذا تمتاز سياسة الكرملين بالصبر الطويل ... الطويل جداً ... وبالتخطيط البعيد المدى .... البعيد جداً ، مما لا تقدر عليه أكثر الدول ، وقادتها في حرج وضيق من جراء مقدم الانتخابات ، أو توقع الانقلابات ، أو ضغط المعارضة أو أهواء الرأي العام !

وأذكر في هذا السبيل أني اجتمعت مرة في حفل لدى سفير الصين الشعبية بالزعيم الشيوعي البرتغالي كونهال فعلمت أنه مقيم في موسكو منذ عشرة أعوام وكان الدكتاتور سالازار إذ ذاك الحاكم بأمره في بلاده . ودار الزمان وبعد حوالي عشرين عاماً جاء في الأنباء أن السيور كونهال هبط في مطار لشبونة قادماً من موسكو بعد بضع ساعات من حدوث الانقلاب على الديكتاتور في ربيع العام ١٩٨٤ !

عاشت موسكو ، في ذكرى الأربعين عاماً للثورة ، أسبوعاً كله نشوة وفخر واعتزاز . زعماء الأحزاب الشيوعية بين يديها ، والملايين من سائر الشعوب يتطلعون إليها ، لا سيما وأنه سبق قبل شهر أن أطلق الاتحاد السوفييتي القمر الاصطناعي الأول في تاريخ البشرية ثم تلاه قبيل عيد الذكرى ببضعة أيام إطلاق القمر الثاني وهو أعظم شأناً من الأول .

لو أن سادة الكرملين عرفوا أدبنا العربي لذكروا ، فيما هم فيه ، قول ذلك السيد الحسيب النسيب : [الفرزدق] .

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا   وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

كيف نجحت الثورة فكان هذا الاتحاد العملاق ؟

تجاه هذا المحد يرجع المرء بالخاطر إلى أربعين عاماً خلت ويتساءل : كيف اتفق لروسيا ، روسيا القيصرية ، وقد كانت قابعة في حليدها مادة ومعنى ، أن تكون موطن الثورة الشيوعية الكبرى ، وإذا بالاتحاد السوفييتي هو المرشد الأكبر ، وإذا بعاصمته موسكو هي القبلة والمنارة ؟

ليس من واحب السفير التساؤل عن مثل هذه القضايا ، فله مشاغل أخرى ، ولكن المقيم في موسكو لا يملك أن يتجاهل أو يمر مر الكرام على ثورة لينين وما كان من حرائها . لا مناص له من التفكير في هذه الثورة وهو يشهد معالمها ويعيش مع ذكرياتها من حوله صبح مساء .

قد يقيم المرء سنوات في باريز مثلاً فلا يرد حتماً ذكر الثورة الفرنسية كل يوم ، حتى في عيد ١٤ تموز ، وهو ذكرى الاستيلاء على سجن الباستيل ، ما سمعت أحداً يتحدث عن هذا السجن والاستيلاء عليه . وقد يقيم المرء سنوات في الولايات المتحدة الأميركية فلا يتردد ذكر حرب الاستقلال كثيراً . والواقع أن معالم هذه الحرب ومخلفات قائدها جورج واشنطن صارت إلى السياحة والتجاره أقرب . وفي برلين وروما يلحظ المقيم أن كل ما له صلة بالنارية والفاشية ، أو بهتلر وموسوليني ذهب ، عقب الخلاص من هذا وذاك ، في سجلات التاريخ وأدراح الرياح ، وهكذا في شتى البلدان ، ولكنَّ لموسكو مع المقيم فيها شأناً آخر .

في موسكو ليست الثورة فترة تاريخية مجيدة مضت وانقضت . إنها حية قائمة يتنفسها المرء من حوله في كل نواحي الحياة ، ليل نهار : في صور كارل ماركس ، لينين من كل ركن ، في أقوالهما المأثوره والشعارات على اللافتات عرض الشوارع الكبرى ، في النشيد « الأنترناشيونال » يملأ الجو ، في النجوم الحمراء فوق الأسوار والأبراج وقبب الكنائس من حول الكرملين تشهد موسكو أضواءها طول الليل ، في الإذاعة والتلفزيون ، في حقول جريدة « البرافدا »

من كل صباح وفي تعليقات وكالة « تاس » من كل يوم .... يعيش المرء الثورة من حوله في كل لمحة ونفس ، فلا يملك ، كما أشرت ، إلا أن يفكر فيها ويتساءل .

كان من المتوقع ، وفق التنبؤات الماركسية ، أن تقوم الثورة الشيوعية في بلد صناعي متقدم فيه جماهير عمالية وطبقة بروليتارية واعية نسبياً مثل فرنسا أو انكلترا أو ألمانيا . وفي الواقع قامت انتفاضات في ألمانيا حوالي العام ١٨٤٨ ، وقامت ثورة « الكومون » في فرنسا في العام ١٨٧١ ، وقامت محاولة في برلين عقب هزيمة الحرب العالمية الأولى .... ولكنها فشلت كلها ، وإنما اندلعت الثورة ونجحت في بلد لم يكن يخطر في بال !

نجحت الثورة الكبرى في بلد متخلف معزولٍ منطوٍ على نفسه قابع ، إذ ذاك ، في الظلام والصقيع ، وما كان له شأن في تاريخ الحضارة فلا هو عرف تراث الشرق العريق ولا هو بلغ مدنية الغرب الحديثة !

نجحت الثورة رغم ما جابهها من أزمات ومجاعات وأوبئة وفتن وحروب أهلية في الداخل ، ومن تحالف فئة من الدول صممت على أن تطيح بالثورة وهي في أيامها الأولى . نجحت فيما يشبه المعجزات !

لقيت الثورة في سنيها الأولى من الأهوال ما يعصف بالدول العتيدة الراسخة منذ قرون ، فتغلبت عليها في تضحيات تكاد تكون فوق طاقة البشر !

وما كاد يستقر أمرها حتى جاء هجوم النازيين الصاعق فظن كثيرون أنه سيزعزع أركانها فردت الهجوم ورفعت الراية الحمراء في قلب برلين في بطولة خارقة !

وها هي تبلغ الأربعين من عمرها وإذا بذلك « البلد المتخلف المعزول المنطوي على نفسه والقابع في الظلام والصقيع » كما قدمت ، يصبح الزعيم القائد الرائد ! وإذا بموسكو تلك « القرية الكبيرة القاسية المناخ والخشنة العيش » تصبح

منارة العالم ، إليها تتطلع ومنها تستلهم شعوب الأرض : من الفلاحين في الصين الشعبية إلى عمال مناجم الذهب في جنوب أفريقيا ، ومن التقدميين المثقفين في مقاهي « سان جرمان دوبره » في باريز إلى الهنود الحمر في حبال الآندس في أميركا اللاتينية ... في ما لا سابقة له في التاريخ !

تجاه كل هذا من حق المرء أن يتساءل :

كيف اندلعت الثورة في بلد لم يكن ناضجاً مستعداً لها ؟

كيف نجحت الثورة رغم كل عناصر الفشل التي أحاطت بها ؟

كيف بلغ الاتحاد السوفييتي هذا المقام بعد كل ما لاقاه وما أريد به ؟

تحدثت في هذا إلى بعض العارفين ممن تضم مكتبتهم عشرات المجلدات عن الثورة السوفييتية والماركسية ــ اللينينية فلم أحظ بأجوبة واضحة صريحة . يبدو أنه ليس من جواب !

أما وقد نشأت على دراسة العلوم فتأبى عليّ نشأتي العلمية إلا أن يكون لكل سؤال جواب . كان هذا هو الاعتقاد السائد في النصف الأول من هذا القرن حين درست العلوم على مقاعد جامعة السوربون : تضافر العلماء من كوبرنيكوس إلى غاليله ، ومن نيوتون إلى أنشتاين على كشف القوانين التي يخضع لها عالم المادة : قوانين واضحة نيّرة شاملة لا يعصى عليها شيء وإن من شيء إلا يسير وفقها من الالكترون في أعماق الذرة إلى المجرات والسدم في رحاب الفضاء .

تجاه هذه الكشوف الموفقة في عالم المادة عمد العلماء ، في ميادين أخرى ، إلى إيجاد قوانين مماثلة تخضع لها عوالم الحياة والنفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد .... وتوضح بشكل علمي منطقي ما يجري فيها من أحلام الليل إلى ثورات الشعوب ، ومن الأزمات الاقتصادية إلى مجرى التاريخ ، في مجموعة من

النظريات البارعة وهي ناطحات السحاب في دنيا الفكر ، ملأت الدنيا وشغلت الناس ، واعتقد القوم أن لكل حدث منطقاً وأن للتاريخ مجراه الحتمي وأن للاقتصاد دوراته النظامية .. وهكذا . كان اليقين أن لكل سؤال جواباً .

هذا في الأمس القريب ، أما اليوم فسلام على ذلك اليقين : توالت الأحداث من أزمات وانتفاضات وثورات .. عجزت تلك النظريات أن تحيط بها ، لا توقعاً من قبل ولا تفسيراً من بعد . وأخذ أهل النهى يتساءلون في كثير من الريب : هل تخضع أحداث المجتمع لقوانين ؟ بل هل لهذه الأحداث من منطق ؟ وهل يمكن التنبؤ بمجرى التاريخ ؟ بل هل للتاريخ مجرى حتمي معقول ؟

وجاءت الكشوف العلمية الأخيرة فبددت آخر ما تبقى من الأوهام : تبين أن تلك القوانين في عالم المادة ليست من الشمول كما اعتقد السلف الصالح ، بل إنه ليس من قوانين شاملة على الإطلاق . وقد تختلف وجهات نظر العلماء اليوم في كثير من القضايا ولكنهم يجمعون على أمرين اثنين :

الأول : من العبث أن يحلم الناس بعلم يفسر هذا الكون وأحداثه تفسيراً بسيطاً شاملاً . ذلك أنه ليس من نظرية ولا لمجموعة نظريات أن تستوعب هذا العالم ومجراه لتستنبط منها النظم والأحكام .

الثاني : حين يأخذ العلماء كل عناصر المعرفة والكشوف بالحسبان يبرز هناك عنصر من نوع آخر ، من وراء الطبيعة ، لم يكن بالحسبان .

إذاً ماذا ؟ لم يكن للعلماء بد من الاعتراف في تواضع : إنها الصدف ، الأقدار ! وكأن البشر ، أفراداً وشعوباً ، على مرور الزمان ، دمى أطفال في مسرح العرائس تحركها ، من وراء الستار ، خيوط تمسك بها يد الأقدار :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

أما وإن حديثنا ، في الأصل ، يدور حول الاتحاد السوفييتي وثورته ، أوليس

من عبث الأقدار الحادث التاريخي التالي :

المجمع عليه أن لينين قام بالدور الرئيسي في هذه الثورة ، بل يعتقد الكثيرون أنه لولا لينين لما نجحت الثورة . كان لينين في منفاه في سويسرا يقضي الساعات الطوال مع صحبه في مقاهي زوريخ. وقامت الحرب العالمية الأولى، ودخلت ألمانيا الامبراطورية في حرب مع روسيا القيصرية، واعتقد سادة برلين أن وجود لينين في وطنه يساعد على إثارة القلاقل وحركات التمرد في الجيش والإضرابات في المعامل مما يرجح كفة الحرب لصالحهم فعمدوا إلى نقل لينين سراً في قطار مصفح من سويسرا عبر ألمانيا كلها حتى بلغ حدود روسيا ومنها انطلق لينين . ما كان يخطر في بالهم أن لينين سيعمد إلى ثورة كانت عواقبها في تاريخ الإنسانية أخطر بكثير على سادة برلين وأمثالهم من انتصار جيوش قياصرة روسيا مجتمعة كلها .

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء ﴾ .

صدق الله العظيم

حَفْنَة من تراب ستالينغراد

لما قدم المشير عبد الحكيم عامر وزير الدفاع المصري إلى موسكو دعيت لمرافقته وصحبه لزيارة ستالينغراد . والمعروف أن اسمها اليوم « فولغوغراد » وإنما أستميح الاحتفاظ بالاسم القديم لا حرمة لستالين ولكن اسم ستالينغراد كمعركة دخل في التاريخ .

حول معركة ستالينغراد كتب الكثير : من أبحاث المؤرخين إلى دراسات الخبراء في الكتب المدرسية في الكليات العسكرية ، وأجمع العارفون على أنها من أعظم المعارك في سعة ميدانها وطول زمانها ، وفي ضراوتها وضحاياها وأسراها ، تعادل فيها صمود الألمان العجيب وشجاعة الروس الخارقة ، وتحالف الشتاء فيها مع الروس فكان أقسى ما عرفت ضفاف نهر « الفولغا » من زمهرير منذ عشرين عاماً . وللشتاء في هذا سوابق عبر تاريخ روسيا . كل هذا معروف ولكن بدا لي أن وقفة على ربوع المعركة ، يعيد ذكراها الضابط ــ الدليل ، هي أبلغ من تلك الدراسات والأبحاث .

ولقد أتيح لي أن زرت الميادين التي جرت فيها بعض المعارك الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة : على شواطىء نورمانديا في فرنسا ، وعلى جسر « آرنهايم » على نهر الرين في هولندا ، وفي قلعة « مونت كاسينو » في إيطاليا . في هذه المعارك تطاحنت أرتال من المدرعات على الأرض ، وأسراب من الطائرات في السماء ، في جحيم من الدم والحديد والنار .. ولكنني في ميدان ستالينغراد عرفت أن معركتها شيء آخر يتجاوز دنيا المعارك على أهوالها ويكاد يشارف عالم الأساطير .

أخذ ممثل القيادة السوفييتية الدليل يوضح سير المعركة مستعيناً بلوحات عليها مواقع المتحاربين في شتى مراحل المعركة فبدا لي كأن عملاقين جبارين

تلاقيا وربضا على ضفاف نهر الفولغا فالتف الواحد حول الآخر وتداخلا وأمسك كل بخناق الآخر يبغي خنق أنفاسه طَوالَ شهور وشهور في صقيع ذلك الشتاء ، لا يبغيان فصالاً حتى النفس الأخير .. حتى شارف أحدهما على الهلاك ، أو هلك . وزهقت روحه فعمد إلى الاستسلام .

لحظنا جميعاً أمائر الاعتزاز والفخر على وجه الضابط الشاب الدليل وهو آخذ في الشرح . ومن حقه هذا فقلما يجود الزمان بمثل هذه البطولات .

كان الرأي السائد أن معركة ستالينغراد هي نقطة التحول في سير الحرب وبالتالي في مصير أوروبا والعالم . وعلى هذا أمر أدولف هتلر قواته بالصمود في ستالينغراد مهما كلف الأمر . وأمر جوزيف ستالين قواته باسترجاع ستالينغراد مهما كلف الأمر . وكان تطاحن العملاقين .

دامت المعركة مائتي يوم ويوماً ومائتي ليلةٍ وليلةً من دون انقطاع وفي ضراوة رهيبة فتعتبر أطول معركة في التاريخ .

كيف استطاع الجنود الألمان الصمود هذه الحقبة من الزمان ، والقنابل من فوقهم ومن خلفهم ومن بين أيديهم ؟ أمر يكاد لا يصدق !

كيف استطاع العمال الروس ، مثلاً ، أن يتابعوا في قلب مدينة ستالينغراد صنع الذخائر وتصليح الآليات وسط ذلك الجحيم من حولهم ؟ أمر يحير العقول !

شملت المعركة كل شارع وكل منزل وكل ركن وكل جدار ... حتى دمرت المدينة عن بكرة أبيها فصارت إلى أنقاض . وأعيد بناءالمدينة من جديد وإنما أبقي ، للذكرى وللتاريخ ، على أثرين اثنين قصدناهما في منهاج الزيارة ، الأول يدعى بيت بافلوف ، والثاني قبو باولوس .

أما بيت بافلوف فهو ركن متهدم من نادي صف الضباط القديم صمم صف

الضابط « بافلوف » وعدد من رفاقه على الدفاع عنه فظلوا يدافعون عنه طوال ثمانية وخمسين يوماً وثمانٍ وخمسين ليلة ، في أسمى ما تكون البطولة .

أما قبو باولوس فهو قبو البناء الذي اعتصم فيه القائد الألماني الأعلى الماريشال فون باولوس وأركان حربه ، ووقع فيه أخيراً وثيقة الاستسلام .

هنالك متحف جمعت فيه وثائق المعركة . لفت نظري فيها صورة تاريخية لمسيرة أسرى ستالينغراد الألمان في شوارع موسكو ، وعلى رأسهم الماريشال فون باولوس ، وكنت قد سمعت نتفاً من أخباره في ألمانيا من قبل . تأملت في الصورة وقد بدا فيها الماريشال يسير في الطليعة ، يتحامل على نفسه ، ومن ورائه حوالي عشرين جنرالاً يتبعهم ، في أقسى ما يكون الانكسار ، حوالي مائة وخمسين ألفاً ممن ظلوا على قيد الحياة ، يحيط بهم حرس من الفرسان الروس عن اليمين وعن الشمال .

وذهب بي الخاطر بعيداً : أي مأساة نفسية عاناها هذا الرجل وصحبه من أركان القيادة قبل الاستسلام : كان قسمه العقائدي بين يدي أدولف هتلر يوجب عليه إطاعة أوامره وكان هذا يبرق إليه بالصمود حتى الرجل الأخير .

وكان واجبه المسلكي ، كقائد مسؤول عن جنوده ، يوجب عليه الاستسلام بعد أن تأكد ، فيما لا ريب فيه ، أن لا خلاص ولا جدوى في متابعة القتال .

مأساة لو عرفها وليام شكسبير في زمانه ، وهو المؤلف الفذ في مثل هذه المأساة ، لكان له منها أثر خالد .

آثر الماريشال القتال والصمود حتى أصبح من بقي من رجاله أشباحاً بلا أرواح فأمر برفع الراية البيضاء . لا بد مما ليس منه بد ....

ولقد اتفق لي ، خلال مقامي في ألمانيا ، أن اجتمعت إلى بعض من شاركوا

في معركة ستالينغراد قواداً وجنوداً وعادوا من الأسر ، يلحظ المرء أنهم يعانون عاهات جسمية ، فضلاً عن النفسية ، تلازمهم طول الحياة ، وترجع في الغالب ، إلى تجمد الدم في الأطراف ، قال لي أحدهم :

ـ قد أنسى يوماً ما لقينا من الأهوال ، ولو أن الآلام في قدمي تذكرني بها ، ليل نهار ، ولكنى لن أنسى مسيرتنا في شوارع موسكو ... كان خيراً لنا لو أطاع الماريشال أوامر الفوهرر وقصينا جميعاً كراماً في جحيم ستالينغراد !

والمعروف أن الماريشال فون باولوس بقي في روسيا بعد الإفراج عنه ولم يعد إلى ألمانيا .

واليوم يعيش في فولغوغراد ـ ستالينغراد بالأمس ـ أكثر من مليون من الناس يسعون إلى غاياتهم في هدوء وسلام ، ونهر الفولغا من حولها يسير الهوينا ، سيره الأبدي ، ومن فوقه المراكب المثقلة بالحبوب تنطلق منها أغاني الملاحين الروس التقليدية على أوتار « البالالايكان » :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   حجيج ولم يسمر بمكة سامر

قبيل مغادرة ستالينغراد أهدانا ممثل القيادة ، للذكرى ، صندوقة خشبية صغيرة مزينة بأصداف لماعة براقة فيها حفنة من تراب ستالينغراد ، اعتجنت فيه دماء المتحاربين من هؤلاء وأولئك .

تأملت في الصندوقة وما فيها : أصداف براقة لماعة : هذا هو زخرف الحياة وغرورها . حفنة من تراب : هذا هو المصير لمن قضوا في وطيس القتال أو على وثير الفراش .

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

صدق الله العظيم

الوصايا العشر

تقضي الأعراف الدبلوماسية بأن يقوم السفير القادم إلى بلد بزيارة زملائه السفراء الذين سبقوه إليه . والظاهر أن هذه الزيارة تهدف إلى التعارف ومن قبيل المجاملة ولكنها تفيد السفير الحديث العهد بالبلد إذ يستمع خلال أحاديثه مع السفراء ، وقد اكتسبوا بعض الدراية والخبرة في البلد المعتمدين فيه ، إلى آرائهم في أوضاع هذا البلد فيجمع منها حصيلة وافرة يقابل بينها ويخرج منها بما ينير سبيله فيما هو قادم عليه .

في العواصم الكبرى ، وقد بلغ عدد السفارات في السنين الأخيرة ، ما يزيد على المائة ، يتعذر القيام بهذا القدر من الزيارات فيتغاضى عنها ، إلا للأقربين مودة ورحمة ، ويكتفي بتبادل البطاقات ، أما في موسكو ، والبلد ذو طابع خاص ، والعشيرة الدبلوماسية منطوية على نفسها ، فإن لهذه الزيارة شأناً كبيراً .

بدا لي ، في أغلب الزيارات التي قمت بها ، كأن الزميل الكريم ، وهو الذي يحسب أنه عرف شعاب البلد ومزالقه ، يشفق على الزميل القادم الغر الخالي الذهن مما سيلاقيه ! ولو جمعت ما سمعته هنا وهناك ، ونزعت عنه طابع الحوار الدبلوماسي الذي دار فيه لكان منه الوصايا العشر التالية :

١ — حذار من التحدث بصوت سوي في مبنى السفارة فإن في الجدران آخذات للصوت ومسجلات لا تراها العين .

٢ — حذار من مخابرات الهاتف فإنها مراقبة مسجلة .

٣ — حذار من البريد فإن المراسلات تفتح في براعة ويطلع عليها .

٤ — حذار من البرقيات الرمزية ، الشفرة ، فإن الدوائر المختصة قادرة على حل مغالقها .

٥ ـ حذار من إلقاء أوراق ذات بال في سلة المهملات ، ولو كانت ممزقة ، فإن هنالك من يجمع النفايات الصادرة عن السفارات .
٦ ـ حذار من رجال الحرس القائمين على مداخل مبنى السفارة فإنهم يراقبون الصادر والوارد ليل نهار .
٧ ـ حذار من الموظفين المحليين ، ولا سيما السكرتيرات الحسناوات ، فإنهم حكماً ينقلون كل شاردة وواردة إلى المراجع المختصة .
٨ ـ حذار من المهندسين والعمال الفنيين القادمين بحجة الكشف على البناء وأجهزة الماء والغاز والكهرباء .. فإنما يقدمون لأغراض معينة .
٩ ـ حذار من السوق السوداء ، ولا سيما في سبيل تدبر الروبلات الروسية بالسعر الحر ، فإنها لا تخلو من « أفخاخ » ومشاكل عسيرة .
١٠ ـ حذار من موظفي السفارة المواطنين بالذات .... فمن يدري ؟

ودعماً لهذه الوصايا العشر يورد بعضهم حوادث وقعت في الماضي وفيها عبرة لمن اعتبر ، أورد منها ثلاثة من قبيل المثال :

١ ـ ذلك الملحق العسكري في إحدى السفارات شاء له سوء الطالع أن تكون سكرتيرته المحلية على غاية من الجمال والإغراء ، وكأن هذا جاء من قبيل الصدفة ! فوقع في حبها . وهو رب أسرة محترمة ، وأخذت له سراً صور مع السكرتيرة ، وكان له من ثم الخيار : إما التعاون أو التشهير والفضيحة وآثر المسكين الانتحار .
٢ ـ ذلك المستشار التجاري في إحدى السفارات غادر موسكو إلى زوريخ في سويسرا وعاد منها في اليوم التالي وهو يتأبط حقيبته منتفخة الأوداج . والمعروف أن سوق الروبلات الروسية في زوريخ مجزية ، وأن الأنظمة السائدة في الاتحاد السوفييتي لا تسمح بإدخال الروبلات ، ولكن لحقيبة الدبلوماسي حصانتها ، فلما وصل المستشار إلى مطار موسكو حدث شجار عنيف من

حوله ، لا دخل له فيه ، وكأنه جاء من قبيل الصدفة ! وكان من الهرج والمرج والعنف في الشجار أن أدى إلى سقوط حقيبة المستشار وانفتاحها واندلاع الروبلات منها ... وكانت الفضيحة !

٣ ــ ذلك اللاجىء إلى إحدى السفارات عمدت إلى تهريبه ضمن حقيبة دبلوماسية كبيرة بلغت المطار بسلام وبكل ما يحيط بها من الحصانة الدبلوماسية ، ولكن قائد الطائرة الروسية اضطر لأسباب فنية ، وكأن هذا جاء من قبيل الصدفة ! إلى الارتفاع بالطائرة عالياً في الأجواء .. حتى ضاق صدر اللاجىء المطوي في الحقيبة فأخذ يصرخ يبغي الخلاص ... واكتشف أمره .

مثل هذه الحكايا كثيرة تتناقلها الأسرة الدبلوماسية كابراً عن كابر وكأنها نوع من الفولكلور المحلي من الظريف أن يرد بين الحين والحين في جلسات ليالي الشتاء الطويلة ، دون أن يستطيع أحدهم تأكيد هذه الحكايا بأسناد ثابتة .

غني عن البيان أن في هذه الوصايا العشر مبالغة مفرطة في الحذر والتحذير . ثم إن هذه الوصايا ، في حدود معقولة ، لا تقتصر على موسكو فحسب إذ المعروف أن أكثر حكومات العالم تتخذ في سبيل سلامة الدولة ، طائفة من تدابير الأمن والرقابة تجاه الدبلوماسيين ، وغالباً تحت ستار حماية هؤلاء الضيوف . وقد تكون هذه التدابير شديدة الوطأة في بعض العواصم وتجاه بعض السفارات ، أو يسيرة في عواصم أخرى ، وعلى كل فليس ما هو فريد جديد في موسكو . وبعد فمن كان سوي السلوك مرتاح الضمير فإنه لا يعبأ بالرقابة ما ظهر منها وما بطن .

والواقع أن الرقابة لا يخلو منها بلد ولا ينجو منها إنسان : في باريز ، مثلاً ، بلد الحرية والنور لا أزال أذكر ما يعاني الناس من رقابة بواب العمارة وزوجه ، يطلان ، ليل نهار ، من كوة الحجرة تجاه المدخل ، يرقبان الصادر والوارد ، ويطلعان على شؤون القوم وبريدهم وضيوفهم ودخائلهم ، حتى ليقال إن دوائر

الأمن والاستخبارات تجد في بواب العمارة وزوجه خير الأعوان .

وقد تكون رقابة السلطات المختصة واردة بل واجبة إذ لا يخلو السلك الدبلوماسي ممن يستغلون حصانتهم الدبلوماسية للمغانم المشروعة وغير المشروعة ولمآرب أخرى . من هذه المآرب « جمع المعلومات » أو فلنقل بصراحة « التجسس » ، والتجسس كما هو معلوم أمر خطير له دنياه وأجهزته وأعرافه ويكاد يقتصر الجدي منه على الدول الكبرى ، ولا يرد أن يعمد إليه دبلوماسيو البلاد الناشئة فلاهم بقادرين عليه ولا بلدهم بحاجة إليه . ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده .

والحق أنني ما شعرت برقابة في موسكو تلاحقني أو تنغص عليّ عيشي ، كما يتوهم كثيرون ، ولعل هذا يرجع ، إذا كان هنالك ثمة مراقبة ، إلى تجاهلي أو إلى .... براعة الرقباء !

أما الرقابة الداخلية ، الواردة في الوصية العاشرة ، أي رقابة موظفي السفارة المواطنين لزملائهم فإنها ليست بالنادرة في السفارات . ذكر لي سفير إيران في البرازيل أن أباه كان رئيساً لوفد إيران في عصبة الأمم في جنيف ، وكان في الوفد ملحق دبلوماسي ناشيء عطف عليه ، فلما عين وزيراً للخارجية رأى أن ينقل هذا الملحق إلى طهران ليعمل سكرتيراً في مكتبه لثقته به ، وكانت المفاجأة أنه وجد في ملفات الوزارة السرية مجموعة التقارير التي كان يكتبها بحقه هذا الملحق الأثير !

وقد لا تخلو السفارات السورية من أمثال هذا الملحق ، ولكن أشهد أنه لما توليت وزارة الخارجية ، ومن قبلها الأمانة العامة فيها ، ندر أن ورد إلى الوزارة مثل هذه التقارير . وما أظن وزارات الخارجية ، في معظمها ، تكلف أحدهم بمثل هذه المهمة ولا تشجع عليها ، وإنما يتطوع لها بعضهم من قبيل التقرب

والنفاق ، أو لعقد نفسية أو لوجه الشيطان !

وبعد فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم : السفارات نائية عن الأوطان ، ولا ينالها التفتيش إلا عابراً أو لماماً ، وموظفوها بعيدون عن الأنظار ، والحبل على الغارب ، فلعل في احتمال هذه الرقابة الداخلية ، ما يردع بعضهم عن نزعات النفس والهوى .

تجاه هذا الحكايات والوصايا والأقاويل المتداولة تعيش الأسرة الدبلوماسية ، ومن حولها جماعة المراسلين الصحفيين الأجانب ، منعزلة منطوية على نفسها ، وكأنها في أبراج ذهبية موصدة لا تنفتح على تيارات الهواء الطلق ولا تتصل بالحياة العامة في البلد الذي تقيم فيه .

وفي هذا الانطواء لا تقع الملامة كلها على الأسرة الدبلوماسية ، وإنما تدعو إليه ، بعض الشيء ، الأوضاع الخاصة بموسكو التي لا تيسر الصلات المباشرة لا في مرافق العيش ولا في أوساط المجتمع :

أما الصلات في مرافق العيش فإنها لا تجري مباشرة مع المتاجر والأسواق وما إليها ، كما في العواصم الأخرى ، وإنما تتم حصراً عن طريق دائرة مختصة ، تدعى « بيروبن » تؤمن للسفارات كل ما ترغب فيه . فإذا تعطلت الآلة الكاتبة أوفدت من يصلحها ، وإذا انكسر زجاج النافذة أوفدت من يدبره .. ثم أن هذه الدائرة تقدم الموظفين المحليين من السكرتيرات وسائقي السيارات والخدم والطهاة ... وهي لا تلزم بمن ترشح فإذا لم ينل أحدهم القبول رشحت سواه وهكذا حتى ينال المرشح القبول .

ويرى بعضهم أن استجابة هذه الدائرة لرغبات السفارات هي ميزان للصلات مع بلد السفارة ، فهي تندفع في همة وحماس لإنجاز رغبات سفارات الدول الصديقة ، بينما تقوم بواجبها فحسب تجاه بعضها . وأشهد أن السفارة

السورية كانت محظية تستبق رغباتها على خير سبيل .

أما تعذر صلات الدبلوماسيين بأوساط المجتمع فالسبب الرئيسي فيه هو مخاوف القوم وترددهم :

فالناس سرعان ما يعرفون الغريب في هندامه ولياقته أو سماته ، فضلاً عن اللغة ، فيتحاشون ويتجنبون ، لا عن كراهية وبغض ، ولا عن عرقية أو عنصرية ، بل لأنهم يذكرون ما أصاب بعضهم في عهد ستالين من المصائب والمهالك لا تصالهم ، المزعوم أحياناً ، من قريب أو بعيد ، بالأجانب . وعهد ستالين مضى وانقضى ولكن ما تزال مخاوف الإرهاب الذي ساد فيه ، كامنة في الأعماق ، وقد ينقضي جيل أو جيلان قبل أن يأتي الزمان عليها . ثم أن الحذر ، على كل حال ، خير من التورط ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وفي هذا المجال لا تشجع السلطات المحلية على مزيد من الصلات تحاشياً لأمرين اثنين قد يتعرض لهما المواطنون وهم في غنى عنهما :

الأول : ما قد يرد في حديث الدبلوماسيين ، بشكل مقصود أو غير مقصود ، حول فضائل أنظمة الحكم في البلاد الأخرى ، أو من تعريض أو نقد لنظام الحكم السوفييتي أو الشيوعية إجمالاً ، وفي هذا وذاك إفساد لضمائر المواطنين وإساءة للبلد المضيف .

الثاني : إذا شاهد المواطنون السوفييتيون عن قرب سوية عيش الدبلوماسيين وما يتمتعون به ظنوا أن هذا مرآة للعيش في الغرب وقارنوه بما هم فيه من عيش خشن نسبياً فيحز هذا في نفوسهم ويتساءلون ويرتابون ، وفي هذا زعزعة لثقة المواطن في بلده وحكامه .

ومن قبيل المثال أورد الحادث التالي وفيه دلالة :

درج أحد البيوت التجارية العالمية في زوريخ ، والمختص بالبيع بالمراسلة ، على أن يبعث دورياً إلى السفارات بمجلد فخم أنيق الطبع مقروناً بصور ملونة مغرية لكل ما يحتاجه المرء من الملبس والأثاث والشراب .. إلى أدوات الزينة والتصوير والساعات .... تصفحت هذا المجلد يوماً وانتهى إلى سلة المهملات ونسيت أمره . بلغني بعد حين أن إحدى الدوائر المسؤولة علمت أن إحدى الخادمات في السفارة التقطته وحملته إلى دارها فذاع أمره وأقبل الأصحاب والجيران ليقلبوا صفحاته وليطلعوا في دهشة وإعجاب وحسرة على صور ما لا سبيل لهم إليه ، ويتبادلون التعليقات فيما بينهم ...

وليس في الاطلاع على هذا المجلد وأمثاله خطر كبير وإنما قد ينغص عيشهم ، وعلى كل حال فهم في غنى عنه !

وهكذا تكاد تقتصر صلات الدبلوماسيين على المقابلات الروتينية في الوزارات المختصة ولا سيما وزارة الخارجية ، وعلى الحفلات الرسمية ولا سيما في قصر الكرملين .

أما المقابلات فإنها تهدف إلى قضايا مسلكية معينة وهي محدودة ومحصورة ومقيدة في إطارها وموضوعها فلا هي تشفي الغليل ولا هي تنفتح على آفاق واسعة .

أما الحفلات الرسمية ، شأنها في موسكو وفي العواصم الأخرى سواء ، فإنه يسودها حميا من التحيات والمجاملات والأحاديث المقتضبة هي في الغالب سطحية وشكلية ، ثم يلي الهرج والمرج حول الموائد والمقاصف ، حتى إذا جاءت ساعة الأنخاب والخطب والتصاريح ، وهي بيت القصيد في الحفل ، تعذر الاستماع أو تعثرت الترجمة في ذلك الجو ، وقد يغادر الضيوف الحفل و لم يعرفوا

ما دار فيه .. حتى صباح اليوم التالي حين تصدر جريدة « البرافدا » أو تنطلق إذاعة ب . ب . سي من لندن .

منارتان اثنتان فيهما ، لحسن الطالع ، بعض الهداية والإرشاد للأسرة الدبلوماسية السابحة في فلكها الخاص : هما ، كما قدمت ، جريدة البرافدا وإذاعة لندن العالمية .

أما وأن « البرافدا » ، وهي الناطقة بلسان قيادة الحزب الشيوعي ، تحمل الخبر اليقين فلا عجب ، ولكن العجب عناية الإذاعة البريطانية ، إذ ذاك ، بما يدور في موسكو ، ويذهب الظن إلى أن دوائر الإعلام السوفييتية العليا ، وهي تقدر مدى انتشار إذاعة لندن العالمية ومكانتها ، تزود مراسليها في موسكو بما يروق لها أن يذاع على الناس .

وللدلالة على مدى اطلاع الـ ب . ب . سي يروون النادرة التالية :

كان خروتشييف في طريقه إلى حفل في إحدى السفارات فأحس ، وهو في السيارة ، بفتق في بنطاله ، وخروتشييف بدين كثير الحركات ، وابتأس لهذا ولكن مرافقه هون عليه الأمر واقترح أن يقصدوا أحد الفنادق القريبة ويتوجهوا مباشرة إلى المشلح ، ولا بد أن المرأة القائمة على المشلح تتدبر الأمر . فلما دخلا الفندق ووصلا إلى المشلح وجدا المرأة واقفة وبيدها إبرة وخيط . وتعجب خروتشييف وسألها : من نبأك بهذا ؟ وكيف عرفت ما أقصد إليه ؟ فأجابت : سمعت خبر فتق البنطال في إذاعة لندن !

والطريف أنه يقابل شبه العزلة هذه عن الوسط الخارجي نشاط اجتماعي بليغ في أوساط الأسرة الدبلوماسية ، ويرجح أن هذا هو رد فعل نفسي لذاك : سوق المآدب والحفلات والزيارات رائجة مستمرة لا يكاد يخلو منها يوم أو ليلة . ويتغير إطار هذه اللقاءات من سفارة إلى أخرى ولكن لا تتغير وجوه القوم فيها ،

وكأن تلك الأبراج الذهبية الموصدة ، التي سبقت الإشارة إليها ، تنقلب في حفل كوكتيل مثلاً ، إلى جماعات نحل ما يبرح النحل فيها متنقلاً من حلقة إلى أخرى ولا يسكن طنين أحاديثها .

وفي هذا النشاط يبدو التباين بين أعضاء الأسرة الدبلوماسية في وشائج القربى وفي الاتجاهات السياسية ، وكأن الأسرة عشيرة لها أفخاذها ، ويضم كل فخذ السفارات الأقرب في مناهجها والأوثق مودة : هنالك فخذ سفارات أوروبا الغربية ، وفخذ سفارات الكومون ولث البريطاني ، وفخذ سفارات دول الكتلة الاشتراكية .... وفي هذا المجال كانت سورية ومصر ولبنان ، وهي الدول العربية الممثلة إذ ذاك في موسكو ، تشكل مع إيران والأفغان والهند وأندونيزيا فخذا هو نواة ما عرف ، فيما بعد ، بكتلة الحياد أو عدم الانحياز .

قضيت الأسابيع الأولى في موسكو تلازمني هواجس الوصايا العشر : حذار .... حذار ... حذار ... واتضح لي أنه إذا التزمت بهذه الوصايا وجب عليّ أن أقبع في ركن حريز في السفارة أبكم أصم رهين الرقابتين : الخارجية والداخلية ، لا أبدي ولا أعيد . وهذا بالطبع لا يطاق ولا يجوز .

لا يجوز للدبلوماسي أن يعيش في « أبراج سفارته » أو أن يقتصر على بني عشيرته الدبلوماسية وكأنه زائر عابر في البلد المعتمد فيه همه ما يجري في وطنه وفي وزارة الخارجية فيه ، لا يعبأ بما يدور من حوله في أوساط البلد .

من حق الدبلوماسي ومن واجبه أن يتصل بأوساط المجتمع ومحاولاً الإلمام ، قليلاً أو كثيراً ، بلغة القوم ليطلع على وجوه الحياة عن كثب ويدرك ، ما وسعه الأمر ، المشاعر والأحاسيس في الشعب الذي يعيش بين ظهرانيه .

درجت أينما حللت على إقامة صلات شخصية مع جماعات من أهل البلد أفراداً وأسراً في لقاءات وزيارات ودعوات لا بوصفي سفيراً بل كمقيم في بلد

لا يطيق أن يظل دبلوماسياً أي غريباً عنه . وفي هذا السبيل حاولت ، واستطعت ، أن ألم بلغة كل بلد أقمت فيه . وغني عن البيان أن في هذه الصلات مجالات للاطلاع على أوضاع البلد وخلق الشعب لا تتيسر في نطاق الصلات الرسمية فضلاً عن أن فيها ، لمن يهوى ، مادة للكتابة والذكريات .

وإقامة هذه الصلات ، وفق ما سبق إيضاحه ، ليس باليسير في موسكو ، كما عهدته في العواصم الأخرى ، ولكن شاء حسن الطالع ، أو رعاية الدوائر المختصة العليا ، أن يجعل لي من أمري يسراً فقد تعرفت ، بعيد وصولي إلى موسكو ، في حفل ، اتفاقاً ، أو تدبيراً من حيث لا أدري ، بضابط متقاعد من سلاح البحرية الروسية كان في غاية الظرف وطيب المعشر فضلاً عن أنه واسع الآفاق فقد عرف خلال رحلاته البحرية أكثر مرافىء العالم في القارات الخمس . والتقينا بعدها مرات وتوثقت صلاتنا ولكنني أحسست ، في فراسة المؤمن ، أن صاحبي قد يكون على صلات بدوائر الرقابة العليا ، فكأنه ، وقد قضى سني خدماته فوق البحار السبعة يمخر الآن في بحر جديد ! واغتممت لهذا بعض الشيء ثم قلت في نفسي : هذا شأنه أو واجبه ولست أشعر بفضوله أو بثقل ظله ، ثم خطر لي أن صداقة هذا الرجل وسيلة ممتازة لاطلاع الجهات المختصة بأسلوب غير مباشر ، على ما أبغي إليه من صلات اجتماعية وموقفي منها .

وهكذا أوحيت إليه ، خلال أحاديثنا أنني تواق إلى صلات اجتماعية طليقة ، آليت أن ألتزم فيها القواعد الذهبية الثلاث الآتية :

الأول : لا ترد محاولة جمع المعلومات وما إلى ذلك من السخف في وجه من الوجوه .

الثانية : لا يرد أن أتعرض لنظام الحكم والشيوعية لا من قريب ولا من بعيد .

الثالثة : لا يرد أن أتظاهر في الهندام ومرافق العيش ، في هذه العلاقات الشخصية ، بما يعلو كثيراً عن السوية السائدة في موسكو .

وأدرك صاحبي ما أوحي إليه : إنما أود أن أعيش في موسكو بشراً سوياً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . وكان أن استجابت الدوائر العليا بإطلاق الضوء الأخضر كما أوجز هذا فيما يلي ، وكأنه قام بيننا اتفاق « جنتلمان » فحواه : لا أنا أتدخل فيما لا يعنيني ، ولا هم يضيقون عليّ الخناق في صلاتي الاجتماعية .

بدأت سلسلة هذه الصلات بأن دعاني صاحبي إلى حفل عيد ميلاد إحدى قريباته في أسرة روسية ، وأذكر أن رب البيت كان طبيباً وأن ابنته المحتفل بعيد ميلادها تدرس في معهد الموسيقا والأوبرا . تعرفت في الحفل إلى جماعة من خيرة الناس ، وتبادلنا الدعوات ، وتعرفت خلالها إلى آخرين وهكذا اتسعت الحلقات ... كان صاحبي يلازمني في كل اللقاءات والدعوات في أول الأمر ، ثم أخذ يعتذر ويتوارى ، وكأنه وثق بي وترك لي ، في الظاهر ، الحبل على الغارب ، فقد كنت أعلم أن كل ما سيصدر عني في أحاديثي وسلوكي في هذه الصلات سينقل بتمامه إليه أو إلى الجهة المختصة ، وكأنه صدق عليّ قول شاعرنا الجاهلي :

لكالطول المرخى وثنياه باليد !

والحق أنني التزمت بالقواعد الذهبية الثلاث التي أوردتها بل يبدو أنني بالغت في هذا الالتزام كما في الحادث الفكه التالي :

جاءت إحدى المدعوات إلى حفل بحذاء جديد اقتنته لهذه المناسبة ، وإذا بكعب الحذاء ينخلع في الحفل ولما يمض على احتذائه ساعات . وأخذت السيدة تتعثر عرجاء في خطواتها وانفجرت غاضبة حانقة على صناعة الأحذية السيئة

هذه مشيرة إلى أن التصليح يتطلب زمناً طويلاً وطائفة من المعاملات الإدارية لإعادة الحذاء إلى المصنع ، وقد يكون في أقصى الاتحاد السوفييتي ، وأن هذا مخجل مشين وما إلى ذلك .... وتوتر جو الحفل بعض الشيء فأردت أن أهون عليها الأمر وأطيب خاطرها . واتفق أن أطلق قبل أيام القمر الاصطناعي « سبوتنيك » الأول في التاريخ وكان حديثه يملأ الدنيا وشارته الصوتية الرتيبة ترد من الفضاء ، فقلت لها ما معناه :

اهدئي بالاً فما شأن كعب حذاء بل صناعة الأحذية كلها أمام ما حققه الاتحاد السوفييتي منذ أيام ! بل اسعدي وقري عيناً أنك من هذا الجيل الذي يسمع رسالة القمر الاصطناعي الأول يحمل راية الاشتراكية الحمراء في رحاب الفضاء !

وتطلعت إليّ السيدة طويلاً ، وكأنها أدركت ما أرمي إليه من حديث سينقله بعضهم وينال الرضا : ولكنها لم تتمالك سورة غضبها فأجابت في لهجة عاتبة :

ـ مبارك لك بالقمر وبالراية ... خير لي حذاء سويّ أمشي به على الأرض من قمر نرسله في الفضاء !

أتاحت لي هذه الصلات أن أعرف الشعب الروسي عن كثب ، وقد سبق لي أن عرفت كثيراً من الشعوب عشت بين ظهرانيها ردحاً غير قصير ، وكلها كما يقولون : خير وبركة .. لها ما لها وعليها ما عليها ، ولكني أشهد أن الشعب الروسي من أطيب شعوب الأرض إن لم يكن أطيب الشعوب : صادق مستقيم لا عقد ولا التواء ، تواق للصداقة وفيّ لها ، شجاع مضياف ، رقيق الشعور عاطفي ، وأورد في هذا المجال ، من قبيل الذكرى ، الحادث التالي :

أقمت قبيل مغادرتي بون إلى موسكو حفل وداع كما تقضي الأعراف

الدبلوماسية ، فكان الإقبال عليه منقطع النظير حتى أن الكثيرين من عليّة القوم وأسرة الصحافة ممن لم يكن لهم صلة وثقى بالسفارة السورية و لم توجه إليهم الدعوات ، توسطوا من أجل الدعوة لحضور الحفل . وأسارع إلى القول أن هذا الإقبال لم يكن من أجل وداعي وإنما اتفق أن وصل إلى بون قادماً من موسكو السفير « زورين » وهو أول سفير للاتحاد السوفييتي في ألمانيا الغربية بعد عشر سنوات على نهاية الحرب لم تقم خلالها علاقات دبلوماسية بين البلدين و لم تعقد معاهدة صلح بين الغالب والمغلوب بالأمس . وكان وصول السفير السوفييتي حدثاً ذا شأن إذ ذاك في بون . ودعوته بالطبع وأركان سفارته لحفل الوداع فسرهم أن يكون أول ظهورهم في المجتمع في بون بمناسبة وداع سفير يغادر إلى وطنهم . وشاع الخبر في بون فكان أن تطلع القوم إلى الحفل في حجة وداع السفير السوري المغادر إلى موسكو ليشهدوا السفير السوفييتي وصحبه من المستشارين والملحقين العسكريين القادمين من موسكو !

بعد هذا التمهيد أعود إلى بيت القصيد : اقتربت من السفير زورين خلال الحفل لأتحدث إليه في دورتي على كبار الضيوف للمؤانسة فلقيت السفير مستغرقاً في حوار باللغة الروسية مع سيدة في خريف العمر ، أنيقة فارعة القوام عليها سيماء النبل والكبرياء تلحظ في وجهها سمات جمال ما أتى عليه الزمان . وهذه السيدة معروفة في المجتمع فهي روسية المنشأ من أسرة نبيلة عريقة غادرت بتروغراد في بداية الثورة مع أهلها وهي طفلة ، ويقال أنها كانت من ربات الحسن في رمانها ، ثم تزوجت نبيلاً ألمانياً من شرق بروسيا هو البارون فون كوهلنسبرغ وكان خلال الحرب الأخيرة على رأس إحدى فرق الصاعقة النازية ، وقتل في باريز على أيدي رجال المقاومة الافرنسية . وعجبت لهذا اللقاء بين سفير الاتحاد السوفييتي وبين البارونة التي قرنت روسيا القيصرية بألمانيا النازية !

والراجح أن السفير لم يكن يعرف إذ ذاك شيئاً عن ماضي البارونة وحاضرها وإنما طاب له أن يلقى في أول حفل يحضره في بون سيدة بهية الطلعة تتحدث باللغة الروسية . والظاهر أن السيدة حنت إلى وطنها فراق لها التحدث إلى رجل من جيلها قادم منه .

تطلعت إليّ البارونة ، وفي عينيها الزرقاوين بريق عجيب ، وكأنها ثمرة روضتها آداب المجتمع وأعرافه منذ عهد طويل ، وقالت لي :

— ستغادرنا بعد أيام إلى روسيا ... أتمنى لك فيها خير مقام ... وأرجو أن تذكر قولي هذا : ستجد فيها أطيب شعب على وجه الأرض .

رفعت كأسها فشاركنا في النخب على صحة الشعب الروسي ، ثم أضافت ، في ضحكة ماكرة ، وكأنها في سبيل الدعابة ولا تعني ما تقول :

— بلغ من طيبة هذا الشعب أنه يتحمل هذا الحكم الغاشم في بلده !

وغصّ السفير زورين بريقه .... وبالشامبانيا !

بعد اثني عشر عاماً من هذا الحفل قدمت إلى باريز لشؤون خاصة وكان الدكتور عبد الله الخاني الوزير المفوض في سفارتنا فيها فقدم إلي دعوة لحفل العيد القومي يقام في السفارة بعد أيام . ولما وصلت الحفل شاهدت السفير زورين ، وكان قد نقل من بون إلى باريز ، فالتقينا لقاء الزميلين نستعرض ذكرياتنا عن بون وموسكو وباريز ، وإذا به يقول لي :

— هل تذكر البارونة ؟ تلك الحية الرقطاء ... تسللت إليّ في أول حفل حضرته في بون في وداعك ؟ هل تذكرها ؟

قلت : طالما ذكرتها وذكرت قولها وأنا أتعرف إلى الشعب الروسي وطيابته ، وأشهد أنها صادقة ... ثم استدركت سريعاً وقلت :

ـ صادقة في الشطر الأول من قولها !

هذا وفي الشطر الثاني من قولة البارونة ، حول قدرة الشعب الروسي على التحمل والصبر ، شيء من الحق : شهدت الشعب الروسي مرحاً طلقاً بادي البشر والإيناس رغم الظروف القاسية التي يعيش فيها وما يلقى من ضيق وحرج في المسكن والتموين والمواصلات ، ورغم قسوة الشتاء ، تبلغ في بعض السنين حداً يكاد لا يطاق . ما لم تذكره البارونة هو أن مرد هذا الحرمان ، في معظمه ، يرجع إلى الحرب التي شنها النازيون على الاتحاد السوفييتي وإلى ما عمدوا إليه ، في الهجوم أولاً ، ولا سيما في التراجع ثانياً ، مداً وجزراً ، إلى تهديم كل ما هو قائم تهديماً كلياً لا يبقى ولا يذر .

وعواقب هذه الحرب ظاهرة في موسكو : شهدت خمس أسر تسكن في دار واحدة ولكل أسرة غرفة واحدة وتشارك كلها في المرافق العامة وهي بدائية ، وكان الجو بين أعضاء هذه الأسر طلقاً ودياً في حسن جوار وتعاون على خير ما يكون . شهدت الصفوف الطويلة من الناس حول مداخل مخازن التموين والكساء والأثاث تتقدم في بطء وتقضي الساعات في صقيع الشتاء فما لحظت تذمراً أو شكوى . وما أظن هذا عن خوف أو حذر وإنما طبع الروسي على أخذ الأمور بالحسنى فلا يعمد إلى الغضب والانفعال ولسان حاله : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ .

في اللغة الروسية ثلاث كلمات ترد كثيراً على ألسنة أهلها ، ومن أعذب ما عرفت في لغات العالم ، وهي :

الأولى : نييتشفو : في التسامح والتناسي وغفران ما فات .

الثانية : باجالستا : في الإيثار والإكرام والرعاية .

والثالثة : بوديه : في التفاؤل والأمل والخير .

ويبدو لي أن في هذه الكلمات الثلاث مجتمعة خير تعبير عن الخلق الروسي الأصيل .

وتشاء أحداث التاريخ والموقع الجغرافي أن يظل هذا الشعب الطيب منطوياً على نفسه في شبه عزلة فلا هو عرف الشعوب الأخرى ولا هذه الشعوب عرفته ، ولولا كوكبة من أكابر الأدباء والموسيقيين سطعت نجومهم في أواخر القرن الفائت ، وكأنهم على ميعاد ، لما عرف عالم الثقافة والفن أي سمو تبلغ إليه العبقرية الروسية وأي غنى وعمق في الشعور والعاطفة والإحساس تنطوي عليها النفس الروسية .

بدا لي في بعض المناطق أن القوم ندر أن شاهدوا غريباً ، وإذا اتفق أن القادم يجهل اللغة الروسية ازدادوا دهشة وعجباً . قد يكون الضيف أبكم فله عذره وهو مدعاة للشفقة والرأفة ، أما أن لا يتحدث اللغة الروسية فهذا لا سبيل إلى إدراكه !

وطالما ذكرت في مثل هذه المناسبات الرسائل الفارسية « للكاتب الإفرنسي مونتسكيو » ، يروي في هذه الرسائل ، في كثير من الدعابة والتهكم ما وقع لرجل فارسي قدم إلى باريز في أوائل القرن الثامن عشر فكان الناس يتجمعون حوله يحملقون فيه ويتساءلون في مزيد من الاستغراب : أهذا الرجل فارسي ؟ وكيف يمكن أن يكون المرء فارسياً ؟

ومن الإنصاف القول إن هذا الانطواء لا يقتصر على شعوب الاتحاد السوفييتي بل يغشى كل بلد واسع الرقعة مترامي الأطراف يعيش الناس فيه وكأنهم في عالم قائم بذاته ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية ، يعتقد الملايين من سكانها ، ولا سيما في الولايات الوسطى ، أن لا لغة إلا « الأميركية » وأن لا عملة إلا الدولار ، وإن شاء سوء الطالع لقادم غريب أن يعترف بأنه لا

يستسيغ شرب الكوكاكولا مثلاً نظروا إليه كأنه إنسان من مخلفات العصر الحجري !

وأخيراً أورد للدلالة الحادث الفكه التالي : جرت في موسكو مباريات رياضية في خريف العام ١٩٥٧ اشترك فيها وفد من سورية ووفد من السودان . وما سبق لسكان موسكو أن شاهدوا إنساناً أسود البشرة فكان الناس ينظرون إلى الضيوف السودانيين في دهشة وفزع وكأنهم مخلوقات عجيبة حتى أن الأمهات كن يعمدن إلى تغطية عيون أطفالهن كيلا يروا هذه العجبة !

وكان على رأس الوفد السوري الأستاذ أنور تللو ، وشاء تنظيم المباريات أن يقرن رئيس الوفد السوري ورئيس الوفد السوداني ، السيد عثمان الشيخ ، معاً في الفندق والسيارة والمترجم والدليل والجولات .... وما مضى يومان حتى جاءني السيد تللو ، وقد نفذ صبره لما لقيه من صحبة زميله السوداني من موقف الناس .. وصاح :

– أرجو الخلاص من هذه الرفقة ... ما عدت أقدر .. صرنا فرجة !

بين ستالين ولينين

أين الثرى من الثريا

تقضي الأعراف بأن يتوجه السفير ، عقب وصوله إلى موسكو ، لزيارة الضريح الذي يرقد فيه لينين وستالين في الساحة الحمراء ، وبأن يرافق الوفود القادمة من بلاده في هذه الزيارة التقليدية . وهكذا أتيح لي أن أشهد مراراً لينين وستالين حاثيين جنباً إلى جنب ، ومن فوقهما علم أحمر أبلاه الزمان : هو علم ثورة العام ١٨٧١ في باريز ، ثورة الكومون ، هدية مس الحزب الشيوعي الإفرنسي .

طالما خطر لي أن من عبث الأقدار أن يكون ستالين خلفاً للينين وأن يجمع بينهما هذا الضريح . وأي عبث فأين الثرى من الثريا ! ذلك أن الرجلين يفترقان في كل شيء ، كالظلمات والنور ، ولا يجمع بينهما ، في المنشأ والخلق ومنهج القيادة شيء .

وقد كتبت المجلدات عن لينين ، وتختلف الآراء فيما قادت إليه ثورته ولكن أجمع العارفون على أنه عبقري فذ ، عميق الثقافة ، بعيد النظر ، طيب الخلق ، مرن واقعي ، واسع الأفق ، عرف الغرب في منفاه وخبر بلاده وشعوبها ، شخصية جذابة في إيمان قوي لا يتزعزع يتجلى في خطبه ويسمو معه ويحلق حتى يسحر الجماهير .

وعرف الناس ، أخيراً ، ستالين على حقيقته : وضيع الأصل ، محدود الفكر ، ضيق الأفق ، ظل ثقيل وقلب قد من صخر ، منطو على نفسه في الهواجس والوسواس ، متوقع للغد ، سباق للبطش حتى جاء عهده حماماً من دماء الأبرياء !

وقد كان لسيرة كل من هذين الرجلين آثار بعيدة المدى لا في الاتحاد السوفييتي فحسب ، بل في مسيرة التاريخ ومصائر الشعوب :

لولا لينين لما نجحت ثورة تشرين من العام ١٩١٧ . قد يبدو هذا القول إسرافاً في الإطراء والتمجيد ، فالمعروف أن الأفراد لا يصنعون التاريخ وأن الأحداث الكبرى ليست من صنع الرجال وإنما تنضج مع الزمان حتى تتهيأ ظروفها ويحين أوانها فيتاح للزعيم النابه المقدام أن يكون في الطليعة وفي القيادة ولكن الأحداث سائرة إلى مصيرها على كل حال . وهذا حق فقد آن للهند مثلاً أن تنال استقلالها في منتصف هذا القرن سواء كان الزعيم مهاتما غاندي أو لم يكن ، وكان لفرنسا أن تتحرر من الاحتلال النازي سواء كان الجنرال دوغول أو لم يكن .. أما ثورة العام ١٩١٧ فيعتقد الثقات في أوضاع روسيا القيصرية إذ ذاك أن لها شأناً آخر وأنه لولا شخصية لينين وبعد نظره وحدسه العبقري لكان نصيبها الفشل مثل عديد من الثورات والانتفاضات التي سبقتها .

يقابل هذه الصفحة الإيجابية الحمراء للينين صفحات سلبية سوداء لستالين .

لولا ستالين لما سادت أفكار كثير من الناس في العالم ، فترة من الزمان ، تلك الصورة المشوهة عن الشيوعية : خنق الحريات والبطش والإرهاب ، ظناً أن تصرفات ستالين هي الشيوعية بالذات .

لولا ستالين لما كان هذا الغلو في عبادة الشخصية ، أخذ بها كثيرون من بعده .

ولولا ستالين لما قبع الاتحاد السوفييتي ، طوال ثلاثة عقود من السنين ، منعزلاً عن العالم ينظر إليه كسجن كبير .

من سوء الطالع أن الاتحاد السوفييتي عرف اليتم وهو في الثانية من سنيه ، والثورة في السابعة ، حين فقد أباه الروحي لينين فتولى الوصاية عليه ستالين .

من يدري لو أن لينين امتد به العمر لكان للشيوعية ، ومعها مصائر نصف سكان المعمورة ، شأن آخر !

يرقد هذان الرجلان ، لينين وستالين ، جنباً إلى جنب ، في ضريح الساحة الحمراء . والمعروف أن لينين لم يكن راضياً كل الرضا عن ستالين في حياته ، والراجح أن روح لينين غير راضية عن هذا الجوار أيضاً ، وكان الظن أن هذا الجوار ، في الرقدة الأبدية ، سيدوم طويلاً ، ولكنه لم يتجاوز تسع سنوات إذ حدث ما لم يكن في الحسبان وما لم يخطر في بال :

في ذات يوم ، وفي أعقاب تقرير خروتشيف عن ستالين إلى مؤتمر الحزب العشرين التاريخي ، نقلت رفات ستالين من الضريح إلى كوة في أحد جدران الكرملين حيث ترقد رفات عشرات من رجالات الحزب الفائتين .

وعاود الناس زيارة الضريح ، بعد أن منعت الزيارة فترة قصيرة خلال عملية نقل الرفات ، فوجدوا لينين وحده ، ولحظ بعض من ألفوا هذه الزيارة أمراً عجباً : بدا لهم كأن وجه لينين وجه جديد آخر زالت عنه قترة الموت والكآبة فانفرجت أساريره وانطلقت في ارتياح . ودارت الأقاويل حول هذه الظاهرة بين مصدق ومنكر حتى تبين جلية الأمر فيما يلي .

إن الإبقاء على وجه لينين في حالة سوية لا يطرأ عليه البلى طَوالَ عقود من السنين يتطلب عناية دقيقة مستمرة وطائفة من المستحضرات تطلى بها البشرة أو تزرق تحتها ، يقوم بها فريق من الأخصائيين بين حين وآخر ، توقف خلالها زيارة الضريح . فلما عمدوا إلى نقل رفات ستالين قاموا بهذه العملية من الصيانة والتجميل فكان من جرائها ، في الأيام الأولى ، ذلك البشر المنطلق على وجه لينين !

ولم يكتف بعضهم بهذا الإيضاح الفني فقالوا : لم يكن لينين يثق بستالين وهو على قيد الحياة وبالتالي لم يكن يطمئن إلى جواره في الممات ، فلما أبعد عنه ابتهج ووجد ، أخيراً ، الراحة الأبدية والسلام !

والناس على دين ملوكهم

حين كنت على رأس المفوضية السورية في بلجيكا كان سفير الاتحاد السوفييتي فيها الرفيق بافلوف حديث المجتمع ويشار إليه بالبنان : مديد القامة ، ومهيب الطلعة في لحية طويلة سوداء ، يتعمد الجد إن لم أقل الصرامة وينتصب في الحفلات كالصنم لا يصدر عن تحية ولا عن ابتسامة في كبرياء وتعال حتى ليكاد يرهبه الناس .

كانت الحرب الباردة في إبانها بين الشرق والغرب ، وبين موسكو وواشنطن ما صنع الحداد ، وكان ستالين في ذروة عليائه بعد انتصارات الحرب العالمية الأخيرة فساد القول في أوساط بروكسيل المحافظة الموالية للغرب : إن هذا السفير يمثل سيده ستالين خير تمثيل ، مخبراً ومظهراً !

بعد حوالي عشر سنوات ، في موسكو ، قصدت إلى وزارة الخارجية فيها فإذا برجل يتقدم مني بالتحية هاشاً باشاً في أظرف ما يكون عليه الأنس والوداعة .... وتساءلت ، فترة خاطفة ، أين عرفت هذا الرجل ؟.. وعاد إلى خاطري أنه ذلك السفير بافلوف في بروكسيل ، وتبين أنه يعمل سكرتيراً في دائرة الشرق الأوسط في الوزارة في موسكو .

قلت في نفسي : تواضع هذا الرجل في موسكو ، وتعالى في بروكسيل .. والكريم إذا دخل بيته فهد وإذا خرج منه أسد !

وأبدى الجبروت في عهد ستالين ، وعمد إلى الظرف في عهد خروتشييف . والناس على دين ملوكهم !

الشيوعية وشعوب الاتحاد السوفييتي

كيف يتقبل الناس الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ؟

كيف يواجه مئتان وخمسة وسبعون مليوناً من البشر عقيدة وحيدة ، هي الشيوعية ، دون سواها ؟

هل هم مؤمنون بها حقاً ؟ هل هم مرغمون عليها رغماً ؟ أو لا هذا ولا ذاك ؟

قبل قدومي إلى موسكو كنت أستمع إلى الآراء السائدة في الغرب تقول :

إن المنتسبين إلى الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي قلة قليلة من سكانه ، وبين هؤلاء المنتسبين الأقلون يؤمنون صدقاً والأكثرون يتظاهرون سعياً وراء المغانم وانتهازاً ، أما الملايين من الناس فهم جانحون إلى المسايرة وعدم المبالاة .

وتبين لي ، من ثم عقب مقامي في الاتحاد السوفييتي ، أن هذه الآراء لا تأخذ بالاعتبار أمراً رئيسياً يتلخص فيما يلي : إن نظرة المواطنين في الاتحاد السوفييتي إلى الشيوعية تختلف كلياً وجذرياً عن نظرة الناس إليها في سائر بلاد العالم الأخرى حتى في البلاد الاشتراكية الآخذة بالنموذج السوفييتي من دول شرق أوروبا .

والغريب أن هذا الأمر ، على خطورته ، قلما يرد ذكره في معرض الحديث عن الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ، رغم أنه يتضح في الوقائع التالية :

١ — في كثير من بلاد العالم يأخذ بعضهم على الشيوعية أنها دخيلة مستوردة لا صلة لها بالبلد ولا جذور لها فيه ، وكأنها تسربت في الظلمات تهريباً ومخادعة ، أما في الاتحاد السوفييتي فقد قامت الثورة الشيوعية في دياره وعلى سواعد أبنائه وفي وضح النهار وعلى أعين الناس فالشيوعية منه وإليه ، وما قد يكون ناحية

ضعف في الشيوعية في بعض الأقطار هو مدعاة للاعتزاز والفخر في بلد لينين .

٢ — يأخذ بعضهم أيضاً ، في كثير من بلاد العالم ، على الشيوعية أنها تتطلع إلى موسكو فتعمل بإيحائها وتحرص على مصالحها بوصف موسكو حامية الشيوعية العالمية ومعقلها المكين . أما في الاتحاد السوفييتي فلا يرد هذا الأخذ بالطبع ، بل أنه ليزيد البلد قوة وسلطاناً أنه منارة لكثير من أقطار الدنيا تستهدي بها شعوبها .

٣ — يخشى الناس ، في بعض بلاد العالم ، ما تعلنه الشيوعية أو ما تضمره من « حرب الطبقات » وما قد تؤدي إليه من حروب أهلية وويلات . أما في الاتحاد السوفييتي فقد انحسم الأمر منذ أمد بعيد وزالت الطبقات مرة أولى وأخيرة .

٤ — تسعى الشيوعية في كثير من بلاد العالم ، لتشق طريقها علناً وبالطرق السلمية إذا سمحت شرائع البلد أو سراً وتآمراً إذا حالت دونه . ويرى بعضهم أن في هذا ، بالإضافة إلى مشاكل الأحزاب التقليدية الأخرى ، مدعاة للتنازع والخصام والقلاقل . أما في الاتحاد السوفييتي فلا هذا ولا ذاك ، وليس في الميدان سوى الشيوعية وحدها دون سواها يسير الناس وراءها وتجمع بينهم في هدوء وسلام .

٥ — يضاف إلى ما تقدم الاعتبار التاريخي التالي : عرفت البلاد الآخذة بالشيوعية عهوداً سابقة ذاقت خلالها حلوها ومرها ، فرومانيا مثلاً عرفت ملكية — دستورية ، وتشكوسلوفاكيا عرفت جمهورية ديمقراطية ، والفيتنام عرفت عهد المستعمرين الإفرنسيين .. ويحدث أن يتطلع المواطنون إلى هذه العهود السابقة للمقارنة أو الذكرى أو للحنين .. أما الاتحاد السوفييتي فإن له في تاريخه الحديث شأناً فريداً خالف فيه كل تنبؤات النظريات الماركسية فقد انتقل ، في قفزة واحدة ، مما يشبه أوضاع القرون الوسطى من إقطاع ورق واستبداد في عهد القياصرة إلى الشيوعية رائداً في الطليعة في مستهل هذا القرن

العشرين . فإذا نظر المواطنون إلى الماضي وحدوا عهوداً بغيضة عانى فيها أجدادهم الويلات وتبدو الشيوعية أمامها فرحاً وتحرراً .

٦ ـ أخيراً يرى بعضهم في كثير من البلاد أن الشيوعية لا تعرف حدوداً فهي عالمية دولية ، وعلى هذا فمن العسير التوفيق بين أهدافها الدولية البعيدة المدى وبين المصالح القومية الوطنية المحلية . ولا يرد هذا في الاتحاد السوفييتي فقد تسايرت فيه المفاهيم والمصالح الشيوعية الدولية والقومية الوطنية وكان في الحرب العالمية الأخيرة خير برهان :

حين هاجم أدولف هتلر الاتحاد السوفييتي أعلن أن هدفه هو القضاء على الشيوعية فحسب ، ظناً منه ومن جماعات في الغرب ، أن الكثيرين من المواطنين في الاتحاد السوفييتي لن يتصروا للشيوعية ولن يموتوا في سبيلها وأنه قد ينحاز بعضهم إليه في القتال .

ولكن شعوب الاتحاد السوفييتي لم تعتبر الأمر حرباً نازية ـ شيوعية ، بل عدواناً ألمانياً على الوطن الأم فكانت حرباً وطنية ، كما عرفت رسمياً ، سمت فيها التضحية والبطولات مما لم يكن يتوقعه الغزاة .

لكل هذه الاعتبارات مجتمعة يتقبل الناس الشيوعية في الاتحاد السوفييتي كأمر طبيعي سوي بما يشبه الرضا لا بما يشبه الاستسلام للأمر الواقع أو المفروض . ويلاحظ المرء آثار هذا في سيماء القوم : طمأنينة وبشراً وانطلاقاً ، قلما يلحظ مثلها في البلاد الشقيقة المجاورة .

وقد أتيح لي أن أشهد الجماهير في المسيرات والمهرجانات احتفالاً بعيد الثورة أو بأول أيار أو في مناسبات عدة ، في عواصم كثيرة فبدا لي أنها في الاتحاد السوفييتي شيء آخر : قد يكون من السهل على الدوائر المختصة أن تجند مئات الألوف من المواطنين وأن تزودهم باللافتات وأن تلقنهم الشعارات .. ولكن

لا قدرة لأجهزة الدعاية ، مهما برعت على أن تطلق على وجوه الناس ما شهدته في موسكو من إمارات الابتهاج والحماس والاعتزاز والفخر .

ذلك أن النظام الشيوعي اندمج ، لا في النظريات والدعاية ، بل في واقعه في حياة الناس اندماجاً أكاد أقول عفوياً : اندماج الأسنان والفكين .

من الحق أن هنالك معارضين في الاتحاد السوفييتي قد يكونون قليلي العدد ولكنهم نابهون في القدر والثقافة ، ويرد إلى الخاطر منهم رجلان أمثلان : الكاتب المؤرخ ألكساندر سوليتسكين ، والعالم الفيزيائي أندره ساخاروف . لكن المعارضة ، على اختلاف فئاتها ، لا تتناول النظام الشيوعي لا في قليل ولا في كثير ، وإنما تطالب بالحريات والضمانات والحقوق التي نص عليها الدستور السوفييتي أو الاتفاقيات الدولية المبرمة ، وبالكف عن إجراءات لا يبيحها الدستور ، كل ذلك في إطار النظام الشيوعي .

وإنه من الخير كل الخير للاتحاد السوفييتي ، وللعالم الاشتراكي كله ، أن الشيوعي الأول ميكائيل غورباتشوف عمد إلى إصلاحات تساير ما هدفت إليه المعارضة . ذلك أن النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، وقد شارف على السبعين من عمره ، قد رسخت جذوره واتسعت دوحته فلا بأس عليه من أن يتخلى عن الخشونة والتزمت ليتحلى بالسماحة والاعتدال في وجه إنساني طليق .

وفي الساحة الحمراء في موسكو يرقد لينين في ضريحه آمناً ومطمئناً إلى ما أسس وخلف عقب ثورة تشرين . قد يحدث ، من قبيل الافتراض البعيد الاحتمال ، أن يطاح بالنظام الشيوعي في أنغولا أو في جزيرة كوبا ، أو حتى في تشيكوسلوفاكيا .... أما في الاتحاد السوفييتي فلا .... وجد ليبقى ولتصدق عليه ، تجاه تكهنات بعضهم في الغرب ، قولة شاعرنا الأموي :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

سبق أن تحدثت عن صديقي « رالف سولمان » سفير السويد وعميد السلك الدبلوماسي فيها ، وثق من صداقتنا أنني أحببت بلاده ووضعت كتاباً عنها وجاراتها من بلاد الشمال . ذكرت له مجمل ما خطر لي عن الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ورجوته بيان الرأي وهو العارف الخبير فقال :

كان هذا ما ذهبت إليه في السنين الأولى من مقامي في بلد لينين فقد حجب عني الحقيقة أمران اثنان : جهاز الدعاية وما طبع عليه الشعب الروسي المطواع .

أما جهاز الدعاية الشيوعية فلا مثيل له في التاريخ في سلطانه وأساليبه وشموله . سلطان يعلو على كل إدارات الحكم ، وأساليب علمية بارعة ماكرة ، ويتحول في شبكات من الخلايا والزوايا في طول الاتحاد السوفييتي وعرضه تأخذ بخناق الناس حتى ليروا ماركس وأنجلر ولينين في منامهم ، يعمل فيها مئات الألوف ومن ورائها مغانم مادية مجزية .

زاد في شأن هذه الدعاية أنه ليس هنالك ما يقابلها أو يعارضها . تذكر زوجتي ، وهي روسية الأصل كما تعلم ، أنه ليس من ربة منزل في الاتحاد السوفييتي تعرف في الصباح ما ستطعمه أسرتها في وجبة الغداء أو العشاء فذلك وقف على ما تجده في السوق من مواد غذائية لا تنوع فيها ولا خيار فيلتزم بها الناس جميعاً . وكذلك في الشؤون العقائدية تقتصر على لحن واحد ليل نهار ، حفظه الناس عن ظهر قلب حتى أنه آمن به واضعوه .

أما الأمر الثاني فهو ما طبع عليه الشعب الروسي طول تاريخه من خنوع وانقياد لذوي السلطان ، وإذا ذهب القول إلى أن الناس على دين ملوكهم فهو أصدق ما يكون في روسيا سواء كان هذا الملك إيفان الفظيع أو الامبراطورة كاترين وسواء دعي بطرس الأكبر أو ستالين .

ويبدو لي اليوم أنه مهما بلغ مى طواعية الشعب الروسي ومن شأن تلك الدعايه فما أخذت الجماهير بالشيوعية حقاً وصدقاً فإذا طرأ وهن على رسل العقيدة في الكرملين أو جفت المغانم من ورائها فمن الراجح أن يتقلص ظل الشيوعية ، وقد تصير بعد حين نسياً منسياً .

ومصير الشيوعية هدا في رأيي طبيعي لا ماص منه ذلك أن كارل ماركس وخلفاءه من بعده عتوا في أنفسهم عتواً كبيراً : حسبوا أن في الماركسية مفاتيح لحل قضايا الدنيا وتقرير مصير الإنسانية . ما أتيح لأحد أن يملك مثل هذه المفاتيح إذ لا وحود لها . ولا عحب أن تصير مجلدات هذه المفاتيح يوماً في مكتبة التاريخ .

من أقوال الرفيق ألكساندر

كان الرفيق ألكساندر باتلانييف من خيرة أصدقائي في الاتحاد السوفييتي ، وهو من كبار المسؤولين عن شؤون الأمن العام .. تعرفت إليه اتفاقاً ، أو عن تدبير دون علمي ، حين دعيت لمقام قصير في « سوتشي » في تلك الريفيرا الرائعة من شواطىء البحر الأسود ، وكان الرفيق ألكساندر يقضي إجازته فيها ، فقامت بيننا مودة وثقة متبادلة بعد عودتنا إلى موسكو ، وكنا نكثر من اللقاء ، وأشهد أنني أفدت من أحاديثه كثيراً .

واتفق أنه بعد أن قضت المدرعات السوفييتية على انتفاضة المجر في خريف العام ١٩٥٦ أوفد الكرملين لجنة من الموثوقين والأكفاء لتقصي الأسباب العميقة التي دفعت بالمجريين إلى النقمة والثورة . ولم ينشر تقرير اللجنة بالطبع ، ولكن كان من أعضاء اللجنة صاحبي باتلانييف فروى لي بعض ما اطلع عليه ، ولم يكن سراً من أسرار الدولة ، آسفاً لما وصلت إليه الحال هنالك مؤكداً أن المسؤولية تقع في الدرجة الأولى على القادة المجريين الذين كانوا أكثر ستالينية من ستالين . وذكر لي من قبيل الدليل ، الأمثلة التالية :

١ – للجيش المجري تقاليد عريقة يحرص عليها ويفاخر بها ، منها أن للفرسان زياً قديماً هو معطف مفتوح عليه مطرزات زاهية الألوان وأزرار كبيرة تلقى على الكتف الأيسر ويتدلى جانباً . وجاء القادة المجريون فألغوا هذا الرداء واستبدلوه بصورة طبق الأصل عن الرداء الروسي العادي ، دون أن يكون لموسكو دخل أو رأي في الأمر ، وأدى هذا إلى نقمة في أوساط الجيش .

٢ – كانت علامات الفحوص في المجر تحسب على أساس مائة فجعلها المسؤولون على أساس خمسة ، كما هي الحال في الاتحاد السوفييتي ، وهذا لا يعني موسكو لا في كثير ولا في قليل ، ودعا إلى نقمة في الأوساط الجامعية .

٣ ـ في المدن المجرية نصب وتماثيل ومنشآت عامة حديثة العهد مثل بيت الشعب ودار النقابات والمكتبة العامة والملعب الرياضي ... أقامها المسؤولون المجريون صوراً طبق الأصل عن مثيلاتها في الاتحاد السوفييتي من عهد ستالين . وأقل ما يقال في هذه أنها غير موفقة ، ثم أنها لا تروق لأهل المجر ولا تنسجم ووسطهم وتراثهم العمراني ، وتذكرهم صباح مساء بأن يد موسكو مسلطة عليهم ، علماً أن موسكو لم تفرض هذه المنشآت على المجر .

وعلق محدثي قائلاً : من حق الأقطار الاشتراكية ، ومن واجبها أن تتعاون وتتحالف وتشارك في الجليل من الأمور الأساسية ، أما الشؤون الأخرى ، من رداء الفرسان وسلم العلامات إلى طرز البناء فلكل شعب ما خلق له وما يهواه .

وفي أحاديث الرفيق ألكساندر أكبرت تفتح الذهن وبعد النظر فقد اتضحت له ، منذ عهد طويل ، الحقيقة المرة التي كلفت العالم الاشتراكي غالياً في الأرواح والأموال والجهود والتي عرقلت تقدمه طوال ثلاثين عاماً ، وتتلخص ، تبسيطاً ، فيما يلي :

إن الماركسية ، ولنقل الشيوعية ، شيء ، ونظام الحكم في الاتحاد السوفييتي شيء آخر : في الأولى مبادىء عامة ملزمة لكل من يأخذ بها ، وعلى أساسها وفي إطارها يضع كل بلد نظام الحكم الصالح لشعبه في فترة من تاريخه ، أما نظام الحكم السوفييتي فهو يرتكز على تلك المبادىء بالطبع ولكنه وضع للاتحاد السوفييتي وشعوبه فهو لم يهدف أقطار الأرض كلها ولا يلزم الشعوب جميعاً .

تبدو هذه الحقيقة بديهية ولكن الكثيرين من الزعماء الشيوعيين في شرق أوروبا وفي أقطار أخرى ظلوا يتجاهلونها رغم انتفاضات كثيرة منها انتفاضة برلين في العام ١٩٥٤ ، وانتفاضة بوزان في بولونيا عام ١٩٥٥ ، وانتفاضة بودابست في العام ١٩٥٦ ، وانتفاضة براغ في العام ١٩٦٨ ،.. فكانوا يتخذون

ما في موسكو مثالاً يقلدونه في كل شيء ، لضعف في الإيمان أو انتهازاً أو نفاقاً .

ولكل أجل كتاب : وإخال أن الرفيق باتلانييف اليوم يقضي مغرب الحياة متقاعداً في دارته « داشا » في ضواحي موسكو أو على الريفيرا على البحر الأسود وهو ينعم بالاً بالعهد الجديد في موسكو وفي عالم الشيوعية تفتحت فيه القلوب والبصائر .

الترجمان الطبل

كان يتردد على السفارات العربية في موسكو رجل ضخم عملاق ، مرح فكه ، يدعى الدكتور حنا سلّام ، بتشديد اللام ! وهو مصري الأصل من دمياط ، بدأ حياته في سلك الكهنوت ثم لا يدري أحد كيف انتقل إلى دراسة الطب في روسيا وتزوج امرأة روسية وأقام في موسكو . كان يتقن اللغتين العربية والروسية ويتطوع أحياناً لترجمة كلمات الأنخاب وخطب المحاملة القصيرة المرتجلة في الحفلات .

كان الدكتور سلام يبالغ في الترجمة فإذا قلت بالعربية مثلاً : أشكر لكم حضوركم ، ترجمها إلى الروسية بما معناه : إننا نتقدم إليكم بأسمى آيات الشكر والامتنان لما زينتم به ديارنا في تشريفكم ... كل هذا في صوت قوي جهوري تغشاه نفحات من الترنيم ! حتى أن بعض المدعوين كانوا يعجبون كيف أن بضع كلمات تقال عادياً في اللغة العربية تقابلها عشرات من الكلمات المنغمة باللغة الروسية !

كان هذا شأنه وهوايته وكنا نتغاضى عنه فما في ذلك بأس ، ثم إن وجوده كان يضفي على الحفل نسمة من المرح والدعابة .

وفي حفل أقمته على شرف وفد سوفييتي عاد من سورية بعد إنجاز مهمة فنية ، تولى الدكتور سلّام الترجمة فلحظت أنه ذهب في المبالغة إلى حد بعيد قد لا يستسيغه الضيوف ، فأنهيت كلمتي قائلاً :

ــ إن الدكتور سلام يستحق الشكر مثنى وثلاث ... فهو لا يقوم بدور المترجم فحسب بل هو فوق ذلك مكبر للصوت ومضخم للفكرة!

وسادت الحفل موجة من الضحك طغت عليها ضحكة الدكتور سلام القوية .

وكان إلى جانبي سفير مصر السيد محمد عوض القوني ، وكان يعاني منه الكثير فهمس في أذني قائلاً :

– كويّس .... عفارم .... بذمتي يستحقها ..... هذا الطبل !

عيد وعيد

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ : كنا نترقب في موسكو أسبوعاً حافلاً اجتمعت فيه مناسبتان كريمتان : عيد ثورة تشرين السوفييتية ، وزيارة رئيس الدولة السورية ، وإذا بنا نفاجأ في ذلك الأسبوع بحدثين بغيضين : الاعتداء الثلاثي على مصر وانتفاضة بودابست في المجر . وللأقدار عبث عجيب .

وهكذا دخل هذا الأسبوع في التاريخ .

موسكو تستعد للاحتفال بعيد الثورة . في الجو بشر وابتهاج ترافقهما الأغاني الشعبية والوطنية الروسية والأعلام الحمراء وصور ماركس ولينين والصفوة من سادة الكرملين في الأعالي من الأركان ، والناس يترقبون يومين اثنين من الراحة ينعمون فيهما بمشهد العرض العسكري ومهرجان الأفراح الشعبية وطيب الليالي الملاح . كنت أسمع ، من مبنى السفارة ، في هدوء الليل ، هدير الدبابات والسيارات حاملات الصواريخ الثقيلة في طريقها ، على مقربة منا ، إلى الساحة الحمراء تدريباً على العرض العسكري ، ففي هذا العرض من دقة التنظيم ما لا يسمح بتجاوز شبر عن الطريق السوي ولا معشار ثانية عن الميقات المحدد .

وموسكو تستعد لاستقبال رئيس الجمهورية السورية ، وقد كان سادة الكرملين جد مغتبطين وفخورين بهذه الزيارة : في أيامنا هذه تتعاقب زيارات رجالات الدولة والوفود إلى الاتحاد السوفييتي فلا يكاد يمر أسبوع إلا وتلقى فيه موسكو زيارة أو زيارتين . ذلك أن أكثر الدول ، ولا سيما في العالم الثالث ، حريصة على توثيق صلاتها بالاتحاد السوفييتي ، وعلى الاستزادة من عونه ورضاه .

هذا في الحاضر ، أما في تلك الفترة ، في الخمسينيات ، فقد كان الوضع

مختلفاً تماماً : كانت الحرب الباردة قائمة بين موسكو وواشنطن ، وكان الاتحاد السوفييتي في شبه عزلة وقد ضرب الغرب من حوله طوقاً سياسياً ، ولم تكن طائفة كبيرة من الدول تبادل موسكو العلاقات الدبلوماسية وإن فعلت ففي تحفظ أو فتور أو جفاء ، والكثرة الغالبة من دول العالم الثالث لم تكن إذ ذاك قد نالت استقلالها ، وبالتالي كان ضيوف موسكو قليلاً عديدهم وفي الغالب من الدول الاشتراكية .

في هذا الجو السياسي المحيط بالاتحاد السوفييتي كانت سورية أول دولة عربية مسلمة شرقية كسرت الطوق ورغبت ، حرة مختارة واعية ، في إقامة صلات وثيقة من الود والتعاون مع موسكو ، وعزم رئيسها الزعيم الوطني البورجوازي المحافظ المتدين السيد شكري القوتلي على زيارة الاتحاد السوفييتي .

لكل هذا حرص سادة الكرملين على أن تتسم الزيارة بأسمى الأبهة والإكرام ، وطَوالَ الشهرين الذين سبقا الزيارة كانت الاتصالات مستمرة بين موسكو ودمشق للاتفاق على منهاج الزيارة ومراسمها وكانت الدوائر المختصة السوفييتية تتفانى في التعاون لتحقيق كل الرغبات . وسادة الكرملين بارعون في إكرام الضيوف ورعايتهم وقد شهدت في موسكو من تكريم الضيوف ما قل مثيله في عواصم العالم .

العدوان الثلاثي

تحدد اليوم الثلاثون من شهر تشرين الأول لوصول الرئيس السوري إلى موسكو .

في فجر ذلك اليوم ، في دمشق ، أدى السيد شكري القوتلي ، على عادته ، صلاة الفجر وأخذ يتأهب للتوجه إلى مطار المزة حيث كانت تربض الطائرة السوفييتية المرسلة خصيصاً بانتظاره . وأقبل أركان الدولة إلى القصر الجمهوري

ليرافقوا الرئيس إلى المطار وإذا بالإذاعات العالمية تدوي بأسوأ الأخبار : منذ أيام والجو مكفهر في سماء مصر فقد احتازت قوات إسرائيل الحدود المصرية باتجاه قناة السويس وقامت معارك عنيفة في صحراء سيناء ثم إن أساطيل فرنسا وبريطانيا تحركت من قواعدها في جزيرة مالطا متجهة إلى الشواطىء المصرية ، وإذا ببريطانيا وفرنسا توجهان إنذاراً إلى مصر وإسرائيل بوقف العمليات الحربية خلال اثني عشر ساعة ، ولم يكن هذا الإنذار إلا ذريعة لمهاجمة مصر .

ترى هل كان هذا التوقيت مقصوداً ؟ أو من قبيل الصدفة ؟ من يدري ولليهود مكر عميق ؟

وسادت الحيرة في القصر الجمهوري : هل يمضي الرئيس في الرحلة أم يعمد إلى إلغائها ؟

كان هنالك رأيان : الأول أنه من الأفضل بقاء الرئيس في بلده في مثل هذه الظروف ، والثاني أن هذه الرحلة هي حير مناسبة ليتحدث الرئيس مباشرة مع سادة الكرملين حول هذا العدوان « والحديدة حامية » كما يقولون .

رأيان تعادلا في الرجاحة وتعذر الأخذ بأحدهما والضرب عن الآخر . وأخيراً بعد ساعات ثلاث من التداول قرر الرئيس اللقاء في دمشق .

كان في إلغاء الرحلة خيبة أمل مريرة لنا جميعاً في موسكو فنشطت الاتصالات بين موسكو ودمشق وأعاد الرئيس السوري على أثرها النظر ، وفي وحي من الإلهام والإيمان ... ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ ، عزم على القيام بالرحلة وتوجه من فوره إلى المطار وغادر دمشق حتى أن بعض أعضاء الوفد المرافق – ومنهم المهندس نور الدين كحالة المشرف على مشروع سد الفرات وكنا نترقب قدومه للمفاوضة حول المشروع – انصرفوا كل إلى غايته وتعذر الاتصال بهم فلم يشاركوا في الرحلة .

والخيرة فيما اختاره الله : كان لوجود الرئيس السوري في موسكو أثره في تحديد موقف الاتحاد السوفييتي من العدوان وفي ذلك الإنذار التاريخي وما أدى إليه في الصلات العربية ـ السوفييتية ، كما يتضح في الصفحات التالية .

وصل الرئيس السوري إلى موسكو في جو يغشاه الوجوم ، ولكن سادة الكرملين حرصوا في الاستقبال على الإبقاء على مظاهر الأبهة والروعة من المراسم الكبرى .

كانت أنباء العدوان تطفو على كل شيء ، وزاد في التوتر تقدم الجيش الإسرائيلي في صحراء سيناء وتراجع القوات المصرية . وأذكر أن الرئيس كلف مرافقه العسكري المقدم طالب الداغستاني بأن يوافيه ، في كل ساعة بموجز عن الوضع وفحوى ما يرد في الإذاعات ، فأخذ المقدم ، يحمل إليه أنباء السوء : استسلام حامية غزة ، سقوط خان يونس ، سقوط رفح ، سقوط بئر السبع ...... فكانت تأخذ بالرئيس السوري سورة الغضب والحمية والعزة فينتهر مرافقه قائلاً : هذه قرى ... هذه دساكر ... لا شأن لها .... لا شأن لها ....

كان لشخصية الرئيس السوري أثرها لدى سادة الكرملين ، كانوا يعرفون ماضيه الوطني ونضاله في الثورة السورية فأكبروا فيه الزعيم الوطني . والروس ، على عقيدتهم الشيوعية العالمية ، وطنيون صميميون ويقدرون وطنية الآخرين . ثم إن الرئيس تحدث إليهم في صراحة ما بعدها صراحة مذكراً أن الصديق وقت الضيق وأن هذا العدوان مناسبة يثبت فيها الاتحاد السوفييتي وفاءه لأصدقائه . وكان يعيد على مسامعهم مثلاً باللغة التركية ، وهو الذي درس في الكلية الملكية في استانبول يوماً ، يقول :

« بودوشمان ، بوميدان » ويعني : هذا هو العدو وهذا هو الميدان » !

انتفاضة في المجر

وشاءت الأقدار أن يرافق هذه الأحداث في مصر حدث خطير في قلب أوروبة الشرقية : منذ أسبوع والمجر في شبه حرب أهلية فقد قامت انتفاضة معادية لموسكو في بودابست وامتدت إلى المدن الأخرى وأحرقت الأعلام السوفييتية والكتب المدرسية باللغة الروسية وحطمت تماثيل ستالين وبلغ الأمر أن رئيس الحكومة المجرية « إمري ناشي » طالب بانسحاب القوات السوفييتية من بلاده ، ثم ذهب إلى أبعد من هذا فأعلن حياد المجر وانسحابها من كتلة دول شرق أوروبة الاشتراكية .

وكان موقف موسكو في هذه الظروف في غاية الحَرَج : لم يكن الكرملين راغباً في قمع انتفاضة المجر بالقوة في الحين الذي يأخذ فيه على بريطانيا وفرنسا عدوانها على مصر . ولكن ما أقدمت عليه بودابست خطير كل الخطورة فيه تهديد لتضامن دول شرق أوروبا وللنظم الاشتراكية فيها ، وهو سابقة وخيمة العاقبة وتحدٍ صريح لمكانة موسكو في هذه الأسرة من الأقطار التي يرعاها الاتحاد السوفييتي ويعتبرها في حماه .

ولم يكن للكرملين من خيار : ظن الزعيم المجري أن موسكو لن تجرؤ على اللجوء إلى القوة ، وأن الغرب سيهب لنجدته ، وكان أن تجاهل العرب وبطش الجيش الأحمر بطشته وأعادت المدرعات السوفييتية الأمور إلى نصابها وحكم على إمري ناشي وبعض رفاقه بالإعدام ونفذ الحكم فيهم جميعاً .

وشاركت الطبيعة في أحداث هذا الأسبوع التاريخي إذ أقبلت على موسكو موجة من الصقيع هبطت معها درجة الحرارة إلى العشرين دون الصفر مما قل أن يقع مثيله في تلك الأيام من قلب الخريف .

كان منهاج زيارة الرئيس في الأصل حافلاً طويلاً يستغرق ثمانية أيام ويتضمن

رحلات إلى لينيغراد وكييف وجمهورية أوزبكستان ، فضلاً عن سهرة مسرح بولشوفي التقليدية وعرض رياضي وفولكلوري كبير في ملعب لينين . ولكن الظروف ألزمت الرئيس بالعودة إلى سورية في أقرب ما يكون ، ولهذا عدل المنهاج فاقتصر على ثلاثة أيام وعلى حفلين رئيسيين : حفل الكرملين تكريماً للضيف ، وحفل يقيمه الضيف تكريماً وشكراً لسادة الكرملين .

في ذلك الجو المتوتر جاء الحفل الذي أقامه الرئيس السوري كواحة ندية في صحراء ملتهبة ، فقد حملت طائرة خاصة من دمشق أثقالاً من أطيب المآكل والحلويات السورية وأفخر فواكه الخريف تلذ لنظرها العين قبل أن يتذوقها الفم ، وكانت مع الأطباق الروسية المحلية بينها ، موضع الإعجاب . فما سبق أن شاهد القوم مثلها . وأقبل المدعوون على المقاصف وأي إقبال ، فما يتيسر مثل هذا الحفل كل يوم . وأذكر أن إحدى السيدات المدعوات رجت أن يسمح لها ، وعاطفة الأمومة لا تقاوم ، بأن تحمل معها ، قرص معمول بالفستق ليتذوقه أولادها ... وما شهدت في حياتي الدبلوماسية مثل هذا الحفل مسحت فيه الموائد مسحاً !

كان الرئيس ، رغم حَرَج الموقف وتأزمه ، طوال الحفل هاشاً باشاً يتحدث إلى كبار الضيوف السوفييتيين وإلى رؤساء البعثات الدبلوماسية في جو طلق بعيد عن التكلف . أما السيدة السورية الأولى فقد كانت ، رغم حداثة عهدها بمراسم هذه الزيارات ، في تصرفاتها وأناقتها ووسامتها ملء العيون .

وعلى ذكر الحفل أورد حادثاً عابراً تناقل الناس خبره في موسكو وكان له أثره في شعبية الرئيس السوري فيها :

اتصل بي ، قبيل الحفل بساعات ، سفير إيران السيد مسعود الأنصاري وذكر لي أن سفيري بريطانيا وفرنسا توسطاه للسؤال هل يستطيعان حضور

الحفل ؟ ذلك أن صلات سورية بهذين البلدين انقطعت عقب العدوان ولكن سبق أن وجهت بطاقات الدعوة إلى هذين السفيرين وإلى السفراء جميعاً قبل الأحداث . وكان أول ما خطر لي أن أجيب بالرفض فكيف يجوز للسفيرين المشاركة في الحفل وقوات بلديهما في قتال على الأرض المصرية ؟ ولكني فضلت استشارة الرئيس وإذا به يقول في لهجة رب البيت العربي الكريم : أهلاً وسهلاً ... أهلاً وسهلاً ... دعهما يحضران ليشهدا خلقنا ويعرفا سلوك بلديهما ...

وحضر السفيران وعقيلتيهما ، وتجاهلناهم فكانوا يتوارون ، والأنظار تتجه إليهم ، ودار حديث القوم حول صفاقة هذين السفيرين وحلم الرئيس السوري وسماحته .

ومن الإنصاف أن أضيف أن سفير إيران ذكر لي فيما بعد أن هذين السفيرين لا يقران ، في الوجدان ، ما أقبلت عليه حكوماتهما من عدوان . وليس بالنادر أن يتبنى السفير ما يذهب إليه أولو الأمر في بلاده وهو في قرارة نفسه غير راض عنه .

واقترب موعد مغادرة الرئيس وموقف الاتحاد السوفييتي لما يتضح . وفي الساعات الأخيرة ، خلال الحفل السابق الذكر ، أكد نيكيفتا خروتشييف أنه وسائر رفاقه في الكرملين ، يتابعون الموقف بكل اهتمام وأن الاتحاد السوفييتي لن يتخلى عن أصدقائه .

وعاد الرئيس إلى سورية ، والعدوان في سبيله ، والموقف يزداد حرجاً وبأساً .

في خضم هذه الأحداث برز ، في سبيل تأييد مصر وسورية ، وجه نبيل رفيع المقام هو الماريشال تشوكوف وزير الدفاع السوفييتي ، والواقع أنني منذ

قدمت إلى موسكو ، أعجبت بشخصية هذا الرجل : إنسان طيب وديع ودود يبدو كرب عائلة متواضع وهو الرئيس الأعلى للقوات السوفييتية في البر والبحر والجو والقائد المظفر في الحرب العالمية الأخيرة وكان يخيل لي أنه في شخصيته الإنسانية الوادعة وفي ماضيه العسكري المجيد قد حطم الصورة التقليدية للضباط الألمان البروسيين من غطرسة وترفع وخيلاء .

كان هذا المارشال من خيرة من عرفت في الاتحاد السوفييتي وكنت أعتز بصداقته وأرجح أن كل الضباط السوريين الذين قدموا إلى موسكو في تلك الأيام ما يزالون يحفظون له خير ذكرى .

بعد هذه التقدمة والثناء أخلص إلى بيت القصيد : كان لوزير الدفاع هذا الفضل في توجيه الموقف ، في أوساط الكرملين العليا ، إلى التدخل عسكرياً إذا استمر العدوان . وأذكر أنه قال لي مساء يوم ، والأزمة في إبانها ، ما يفهم من خلاله أن لا مجال للحزع وأن الجيش والأسطول الأحمر في حالة تأهب .

وفي الواقع ما مضت ثلاثة أيام بعدها حتى جاءت ليلة الإنذار .

ليلة الإنذار

دعيت إلى حفل المهرجان الفني الكبير الذي يقام تقليدياً في ملعب لينين في موسكو ليلة عيد ثورة تشرين أي في ليل ٦/٧ تشرين الثاني من كل عام . وتذاكرت مع سفير مصر السيد محمد عوض القوني ورأينا ، أننا وبلادنا في محنة داهية ، في غنى عن حضور هذه السهرة وكلها رقص وغناء ، وموسيقا تهدف إلى النشوة والطرب ، واتفقنا على الاعتذار عن السهرة على أن نحضر ، بالطبع ، في صباح اليوم التالي ، العرض العسكري في الساحة الحمراء ، وهو الحفل الرئيسي في عيد الثورة .

وبعد حين من الاعتذار اتصل بي مدير شؤون الشرق الأوسط في وزارة

الخارجية السوفييتية الرفيق برانييف ورجاني حضور السهرة .. وألح .... وألح ... وقال إنه يرغب في لقائي فيها ... وازداد إلحاحاً ... واستجبت أخيراً لرغبته وكذلك السفير المصري .

جلست وسفير مصر في الشرفة من ملعب لينين يتوسطنا الرفيق برانييف . كان منهاج الحفل رائعاً عرضت فيه فرق من رينة شباب وصبايا الاتحاد السوفييتي ، قادمين من جمهورياته الخمس عشرة ، ألواناً من الفولكلور . وما أغنى الفولكلور وأحلاه في هذا الاتحاد . ولكن أين ما نشهده وأين ما يجري في بلادنا ! وكان الرفيق برانييف يحاول أن يسري عني وعن الزميل والصديق المصري مردداً في غاية من المجاملة والود :

باجالوستا .. نيتشفو .. حراشوف .. أي رجاء ... لا بأس ... حير ... ولحظت أنه كان ينظر إلى ساعته بين الحين والحين .

وفجأة أخرج من جيبه مغلفاً وقال في لهجة المتلهف المعتز : الساعة الآن العاشرة تماماً .. في هذه اللحظة يتسلم سفراء بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في وزارة الخارجية السوفييتية نص إنذارنا إليهم ويعلن على العالم أجمع إنذار واضح صريح لا لبس فيه : إذا لم يتوقف العدوان كلياً بعد عشر ساعات من تسلم الإنذار فإن صواريخنا ستطلق على لندن وباريز وتل أبيب .

وأضاف في ابتسامة ذكية : ما كان لي الحق في أن أتحدث عن الإنذار قبل هذه اللحظة ... فانعموا بالاً وطيبوا حالاً .... فقد قضي الأمر .

كان هذا الإنذار حدثاً هز العالم هزاً فما سبق أن وجهت موسكو مثل هذا الإنذار . وتراجعت قوى العدوان تبغي السلامة بعد حملة فاشلة في تخطيطها وأهدافها عادت على أصحابها بالخزي والعار، فضلاً عن أن دول العدوان الثلاث أغفلت واشنطن وهي الحليفة الكبرى ، ووضعتها أمام الأمر الواقع مما أدى إلى

استياء الرئيس « إيزنهاور » منذ البداية واستنكاره .

ومن البديهي أن سادة الكرملين ، والمارشال تشوكوف وزير الدفاع في الطليعة ، قلبوا الأمور على وجوهها قبل اتخاذ هذا القرار الحاسم في جلسات طويلة لا ظل فيها لمخلوق غريب و لم يعرف عنها شيء ، ولكني أميل إلى الاعتقاد أن وجود الرئيس السوري في موسكو في تلك الأيام وأحاديثه المباشرة معهم كان له أثره في هذا الموقف الحازم ، وأنه كان من مشيئة الأقدار وحسن الطالع أن تقع زيارته في ذلك الحين ليحظى بأداء واجب قومي نحو مصر الشقيقة .

﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ أولاً وآخراً ، من كان يدري أنه بعد خمسة عشر شهراً يكون الرئيس السوري المواطن الأول في جمهورية عربية متحدة يرأسها السيد جمال عبد الناصر ؟

انفتاح وانطلاق

لم يكن الإنذار بداية الانفتاح بين موسكو ودمشق فقد كان الانفتاح قائماً منذ بضع سنوات في جو ودي حين انفردت سورية بين أخواتها الدول العربية ، بل بين دول العالم ، بأن كانت الدولة الأولى ، غير التابعة ولا الآخذة بالنظام الشيوعي ، في إقامة صلات وثيقة مع الاتحاد السوفييتي في الحين الذي كان يعمل فيه الغرب على عزله سياسياً فكانت مواقف كثير من الدول نحوه تتأرجح بين الفتور والتحفظ والجفاء . وفي هذا كانت سورية السباقة إلى العمل بمبدأ عدم الانحياز من قبل أن ينادى بهذا المبدأ في مؤتمر باندونغ في العام ١٩٥٥ ومن قبل أن تبرز كتلة دول الحياد أو عدم الانحياز إلى الوجود ، إذ كانت أكثر دول هذه الكتلة لما تنل استقلالها .

وتفخر سورية بأنها لم تهدف من هذا الموقف إلى مغنم و لم تساوم فيه و لم تدفعها إليه حاجة أو خطر أو أزمة وإنما عمدت إليه حرة واعية حريصة على التحرر من التزام الغرب وعلى إقامة توازن عادل في صلاتها بين الشرق والغرب .

وأدركت موسكو شأن هذا الاتجاه ، منذ البداية ، وما وراءه من قوى تقدمية ناشطة في سورية ، وساعدت دبلوماسيتها عليه في براعة ورفق وحذر فقد كانت تعلم ما تتحلى به سورية من إباء قومي وحرص على حريتها كاملة غير منقوصة لا يغشاها ظل لا من قريب ولا من بعيد ..

وطول مقامي في موسكو كنت ألمس تقدير سادة الكرملين ، ومن ورائهم أجهزة الدولة كلها ، لسورية . ولا أبالغ إذا قلت : إن سورية كانت الأثيرة في موسكو بين سائر الدول ، وإن السفارة السورية كانت المحظية بين سائر السفارات . وأورد ، مس قبيل المثال ، الحادث التالي :

وجهت الدعوات لحفل عيد الجلاء القومي في مبنى السفارة . وإذا بنا نفاجأ قبل الحفل بأسبوعين ، بعطل في السقوف فقد عانت عنتاً كبيراً من غزارة الثلوج في دلك الشتاء . وتبين أن أعمال الإصلاح وما إليها تتطلب أسابيع ، ولا يجوز إرجاء الحفل . لذا خطر لي إقامته في أحد فنادق موسكو الكبرى ، وإعلام المدعوين ، وفي هذا شيء من الحرج . وعلمت السلطات العليا بما وقع فأصدرت أمرها إلى الدائرة الفنية المختصة بإجراء أعمال الإصلاح وإنجازها قبل موعد الحفل مهما كلف الأمر . وجندت هذه الدائرة إمكانياتها كلها فكان يعمل في المبنى ثلاث فرق من العمال بالتناوب ليل نهار . وأذكر أنه في الأيام الأخيرة حرصاً على سرعة تجفيف الجدران والسقوف أحضرت محركات قوية تنفث بالهواء الساخن وتهدر حتى تعذر عليّ النوم في تلك الليالي ! وكان أن أنجزت الأعمال في الموعد المضروب وأقيم الحفل في مبنى السفارة في حلته القشيبة الجديدة .

في هذا الجو من الانفتاح الودي جاء الإنذار في تلك الليلة ففتح دروباً جديدة واسعة وثقت الصلات بين الاتحاد السوفييتي والعالم العربي ولا سيما سورية . وقد وجهت هذه الدروب أحداث الشرق العربي في العقود الأخيرة من السنين ولا تزال توجهها والراجح أنها توالي في هذا التوجيه إلى أمد طويل . كان من

جراء نصرة موسكو للعالم العربي في ذلك الموقف الحازم أن حدث انطلاق قوي متدفق ومتسارع في التقارب والتعاون والثقة بين الاتحاد السوفييتي وسورية . كان عهد الانفتاح ما قبل الإنذار ، أشبه ما يكون بعهد الخطوبة بين البلدين أو الغزل في مراحله الأولى : نظرة فابتسامة فسلام ... وجاء الإنذار فانطلق إلى : فكلام فموعد فلقاء ... وأي لقاء !

توالت الوفود السورية على موسكو من اقتصادية وهندسية وعسكرية وثقافية ورياضية .. وفد أو وفدان في كل شهر . وكان سادة الكرملين يقابلون الوفود كلها بمزيد من الترحيب والرعاية وكان المنهاج يتضمن طائفة من المآدب والحفلات والرحلات إلى بعض الجمهوريات الاتحادية فضلاً عن الهدايا .

وكانت هذه الوفود تحرص على التعبير عن الامتنان لنصرة الاتحاد السوفييتي للعالم العربي ، يتحلى هذا في الخطب والأنخاب وفي العناق والقبل ، حتى ذهب الحماس ببعض القادمين إلى تقبيل شاربي المارشال تشوكوف وزير الدفاع .

والروس ، رغم الطقس البارد السائد في ديارهم ، مشبوبو العاطفة أيضاً ، ولكني لحظت أنهم كانوا يدهشون لهذا الغلو في مظاهر الصداقة والود كاد يشارف الغرام والهيام ، لا سيما وأنهم يعلمون أنه سبق لسورية أن قدمت للاتحاد السوفييتي ما يعادل أو ما يزيد على ما قدم الاتحاد السوفييتي للعالم العربي ، كما يتضح في الصفحات التالية :

ما قدمته سورية

في هذه الحميا من الغرام والهيام والاعتراف بالجميل فات عن أنظار الكثيرين أمران رئيسيان في صلات بلدينا : الأول ما قدمته سورية للاتحاد السوفييتي ، والثاني هو موقف الكرملين من قضية فلسطين .

لا نكران لما قدم الاتحاد السوفييتي لسورية : نصرة وتأييد في كل الميادين ،

تسليح وتدريب ، قروض ومساعدات وتمويل ، دراسات وخبراء ، جماعات من الطلاب في جامعاته .... وهكذا .. ولكن سورية قدمت للاتحاد السوفييتي أعظم من كل هذا :

كان الاتحاد السوفييتي ، كما سبقت الإشارة ، في شبه عزلة سياسية عمد الغرب بكل الوسائل والجهود إلى إبقائه ، ودول شرق أوروبة الاشتراكية معه ، في طوقها . وكانت دعاية الغرب تظهر الاتحاد السوفييتي كبلد الديكتاتورية الدامية والإرهاب ، وموطن الإباحية وانحلال الأسرة والإلحاد ومحاربة الأديان ، فما كان قادة الشعوب إذ ذاك ليقبلوا على موسكو عن طيبة خاطر ، وكأن الأقطار التي ندعوها اليوم بدول العالم الثالث ، كانت محاطة بأسوار عالية على بواباتها حرس من الغرب ولا سبيل لموسكو إليها .

وجاءت سورية ، كما تقدم القول ، الأولى والرائدة فطلعت من الأسوار وكسرت الطوق . وكان هذا حدثاً كبيراً ابتهجت له موسكو وقدرت شأنه المقبل في انفتاحها على الشرق العربي ومن ثم على بلدان آسيا وأفريقيا .

زاد في هذا الحدث شأناً أنه جاء عن طريق سورية : لا بالتابعة ولا بالشيوعية ، بل الأبية الحرة . قد يقال إن سورية دولة صغيرة هي في رقعتها وعدد سكانها دون ولاية واحدة من ولايات الهند أو البرازيل مثلاً ، ولكن المجمع عليه أن لسورية شأنها الدولي وأنها في نشاطها على البساطين القومي والعالمي تسير في الطليعة وأنها قلب العروبة الخافق وكنانة العالم العربي في غابر الزمان وفي الحاضر : أما في الغابر فرحم الله أحمد شوقي أمير الشعراء :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ... وما زهت ببني العباس بغدان

وأما في الحاضر فليس من الادعاء إيراد ما قاله لي يوماً أحد أقطاب الجامعة

العربية : لولا سورية لتناسى العرب قضية فلسطين ولتغافلوا عن إسرائيل منذ عهد طويل .

ومن الحق أن تكون سورية الدولة الأثيرة في موسكو ، كما سبقت الإشارة ، فقد أتاحت للاتحاد السوفييتي تحقيق حلم تاريخي قديم : كان القياصرة من قبل ، وسادة الكرملين من بعد ، يتطلعون إلى إخراج روسيا من عزلتها في قوقعتها الجليدية وإلى الوصول إلى البحار ذات المياه الدافئة في المتوسط وفي الشرق ، وفتحت سورية الطريق جريئة مقدامة ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر .

ويعتبر العارفون أن هذا الانفتاح على المشرق العربي ومنه إلى آسيا وأفريقيا هو أعظم انتصار سياسي لموسكو في العصر الحديث . وقد تأكد لي ، في مقامي في موسكو ، أن سادة الكرملين يقدرون هذا حق قدره ، ولو أنهم لا يجنحون إلى الغلو في مظاهر الود ، ففي أعراف السياسة إنما هي المصالح المتبادلة لا العواطف المتأججة .

الموقف من فلسطين

أما الأمر الثاني : موقف الكرملين من قضية فلسطين ، فالحق أن الاتحاد السوفييتي وقف إلى جانب العالم العربي موقفاً مشرفاً كريماً وكان تأييده شاملاً في الميادين الدولية ، ثم إنه ، ودول شرق أوروبا الاشتراكية معه ، قاطع إسرائيل وعاداها . هذا لا ريب فيه وقد قابله العالم العربي بجميل العرفان والتقدير . والواقع أنه ليس للعالم العربي من قضايا سياسية خطيرة مطروحة على الصعيد الدولي ، بعد أن نالت كل البلاد العربية استقلالها ، وإنما هي قضية فلسطين . ويعتبر موقف الدول من هذه القضية حجر المحك في صداقتها أو عدائها للعالم العربي . وفي هذا المجال كان الاتحاد السوفييتي نعم الصديق ... ولكن ..

ولكن حدث أن تأييد الاتحاد السوفييتي حجب جوهر موقفه من قضية

فلسطين وقد تحجب الأشجار الغابة ، كما يقال ، ويتضح هذا فيما يلي :

كان العالم العربي مجمعاً من المحيط إلى الخليج . على أنه لا مكان لإسرائيل في الشرق العربي وأنها دولة مزعومة مفروضة ودخيلة ، وكان الهدف هو القضاء عليها . ويبدو أن موسكو اعتبرت هذا الهدف من حق العالم العربي ولكنها ، فيما يخصها ظلت متحفظة تجاهه . كان تأييد موسكو يشمل كافة شؤون فلسطين : اللاجئين ، الأقلية العربية في إسرائيل ، مدينة القدس الشريف ، المنطقة المحتلة ... وكانت نقمة موسكو شديدة على إسرائيل لعدوانها ولكونها صنيعة الامبريالية والاستعمارية ووكر الصهيونية في قلب الشرق . ولكن هذه النقمة وذلك التأييد لم يتعرضا للأمر الرئيسي ، أعني قيام دولة إسرائيل ، وكأن موسكو اعتبرت أنه من حق إسرائيل ، وقد وجدت ، أن تبقى .

وفي حميا أحداث العدوان ونصرة موسكو ظلت هذه الناحية الرئيسية شبه محجوبة ، فما كانت موسكو لتصرح بها جهاراً ، وما كان العرب ليقفوا عندها ، ولكني لحظت أن كثيراً من المراقبين السياسيين كانوا يركزون عليها ويعجبون لاندفاع سورية والعالم العربي إجمالاً وراء موسكو قبل الحصول على تصريح جذري ينفي حق إسرائيل في البقاء .

أذكر من هؤلاء المراقبين السياسيين المستر شارل بوهاين السفير الأميركي إذ ذاك في موسكو ، وكان يعتبر حجة بين خبراء الغرب في شؤون الاتحاد السوفييتي . ولم يكن هذا السفير ، شأن كثيرين من زملائه الأميركيين ، يتقن الأساليب الدبلوماسية الناعمة وإنما كان يندفع في حديثه مجابهاً ـ قال لي يوماً :

إن موقف واشنطن وموقف موسكو من قضية فلسطين يختلفان في الظاهر وفي المدى القريب ، ولكنهما يتقاربان في الباطن وفي المدى البعيد ، فكلاهما

ساعد على قيام دولة إسرائيل ، وكلاهما لا يرى زوالها ... في تلك المعارك الحاسمة بين العرب واليهود في سني الأربعينات ، وقد كانت إسرائيل تتعثر في مخاضها ، كانت دول شرق أوروبا الاشتراكية ، ومن ورائها موسكو ، هي التي تصدر الأسلحة إلى إسرائيل .

وإذا كان الرئيس الأميركي هاري ترومان اعترف بدولة إسرائيل بعد إعلانها ببضع دقائق فإن جوزيف ستالين اعترف بها بعد بضع ساعات .

وكان من قوله يوماً : لنتصور فرضاً أن الإنقلابات أو الانتخابات أدت إلى قيام حكومات موالية للغرب في الدول العربية ، وإلى قيام حكومة موالية للشرق في تل أبيب ، فماذا تصنع موسكو وواشنطن ؟ أولاً يتبادلان موقفيهما الحاليين ؟

قد يكون من واجب السفير الأميركي ، أن يدلي بمثل هذه الأقوال يلبس فيها الحق بالباطل وينظر إلى الأمور من زوايا خاصة مختارة . كان فيما رددت عليه : عاش العالم العربي آلاف السنين ويعيش في غنى عن موسكو ولكن لو أوقفت واشنطن مساعداتها عن تل أبيب شهراً واحداً لانهارت إسرائيل عن بكرة أمها وأبيها .

ندع السفير الأميركي وشأنه ، ونعود إلى أصحابنا في الكرملين : تحدثت مراراً حول هذه القضية الأساسية إلى أولي الشأن فما كانوا يستسيغون التركيز عليها وكأن في هذا إحراجاً لا طائلة فيه ، والواقع أنني رجوت ، في مناسبات عديدة ، لو أن تصريحاً لمسؤول ، أو فقرة في مقال في جريدة البرافدا ، أو تعليقاً في نشرة أخبار « تاس » يستشم منه تهديد لكيان إسرائيل .. عبثاً .

قد تتزحزح جبال الأورال ولكن ما أظن أن تتزحزح القواعد الراسية لسياسة الكرملين العليا .

واليوم ، وقد تصدع إجماع العالم العربي حول قيام دولة إسرائيل ، بل ارتفع
ىلم نجمة داوود في كبرى عواصمه ، يبدو أن موقف موسكو واقعي . ومن
لإنصاف القول أن الاتحاد السوفييتي في موقفه من قضية فلسطين لم يغرر بالعرب
ـ لم يخادعهم ، وإنما غررنا وخادعنا أنفسنا في سجف من العواطف والأوهام .

مسرح بولشوفي

مسرح « بولشوفي » في موسكو يتمتع بشهرة عالمية طبقت الخافقين فقد أجمع العارفون ، منذ أسس لحوالي مائة وخمسين سنة خلت ، على أنه الذروة والقدوة في رقص « الباليه » . وتتباهى المدن الكبرى في الغرب باستضافة مجموعة فرق هذا المسرح وتعتبر قدومها حدثاً فنياً ، وإن من متع المقيمين في موسكو أن يتاح للمرء قضاء أمسيات في هذا المسرح ، وقد أحسنت السلطات المسؤولة بأن خصصت لأعضاء السلك الدبلوماسي مقصورات في قدر كاف يحجزون فيها مقاعدهم على أهون سبيل بينما لا يحصل عامة الناس على بطاقة لمقعد إلا بشق الأنفس وبعد صبر طويل نظراً لإقبال الجمهور رغم أن عدد المقاعد في المسرح يبلغ ألفين اثنين ومائتي مقعد .

وقد شاهدت جماهير الناس ، من أهل موسكو وزوارها ، مسرحيات « الباليه » على هذا المسرح ولكن القليلين عرفوا ما يتطلبه إعداد هذه المسرحيات من عناء ومران وصبر وعزم يكاد يفوق طاقة البشر ، ولما يقتضيه إخراجها من جهود جبارة . وأقتصر للدلالة على بيان ناحية واحدة ، اطلعت عليها لماماً في زيارة ، وهي تخريج الراقصات « الباليرينات » .

هنالك معهد ملحق بالمسرح تقبل عليه كل عام آلاف الفتيات من سائر أرجاء الاتحاد السوفييتي ، يحلمن كلهن بأن يسطع نجمهن يوماً في سماء المسرح ، يختار منهن ، بعد فحوص طبية ونفسية ، بضع مئات يمارسن في المعهد خلال سنوات خمس مراناً على فن الباليه في حركاتها وحطواتها وقفزاتها ودورانها .. مراناً عسيراً صارماً لا هوادة فيه طوال ساعات من كل يوم فلا يتخرج منهن في النهاية إلا بضع عشرات هن « باليرينات » .. ومن هاته الباليرينات تبرز ، في كل عقد أو عقدين من السنين واحدة هي : الباليرينا الأولى : بريما بالرينا :

نجم مسرح بولشوفي الساطع . وأي نجوم ! ما تزال أسماؤهن باقية ، في خاطر الهواة ، في تاريخ الفن : آنا بافلوفا ، تامارا كارسافينا ....

كانت نجمة مسرح بولشوفي إذ ذاك ، ولما تزل ، مايا بليتسستز كايا . عرفتها في حفلات الكرملين وقامت بيننا صلات صداقة وثيقة .. ذلك أن فئات ثلاثاً من المجتمع الروسي تدعى إلى حفلات الكرملين : الأولى من قادة الجيش العظام ، والثانية من رجالات المجتمع العلمية والأدبية والحامعات ، والثالثة من كبار الفنانين وفي طليعتهم نجوم مسرح بولشوفي .

كانت « مايا » امرأة عادية في غاية البساطة مظهراً وملبساً وسلوكاً لا تلفت نظر من لا يعرفها ، ولكنها حين تظهر على خشبات المسرح تنقلب آية رائعة فيما تقدم من رقص « الباليه » : خفة الفراشة في نعومة الحرير ، وقوة النابض الفولاذي في اندفاع السيل ، كل هذا في رشاقة وانسياق ودلال ، وفق « تكنيك » دقيق لا يرحم ، مع ألحان الموسيقا ، معشار ثانية !

كنت أردد عليها قولي : « مايا : إنك ساحرة » فكانت تجيب ضاحكة : وهل تؤمن بالسحر ؟. وددت لو أستطيع أن أرد عليها باللغة الروسية ذلك القول العربي الموجز البليغ ، في تصرف : « إن من الباليه لسحراً .. ! » .

ولما قاربت مهمتي في موسكو الانتهاء دعوتها إلى حفل الوداع فجاءت تتأبط حزمة في كيس حريري واتجهت إليّ :

« طالما قلت لي إنني ساحرة : وها أنا أحمل إليك ، كذكرى وتعويذة ، أوثق ما يتصل بعملي السحري ، إنه الخف الأحمر الذي احتذيته الليلة الأولى التي بلغت فيها مرتبة « البالرينا الأولى » في الدور الرئيسي من باليه « الحورية النائمة » لعشر سنوات خلت » .

والمعروف ، في هذه المسرحية ـ الباليه ، أن الفتاة الحورية بطلة القصة

تفيق بعد رقاد سنين ، أو تبعث من موتها ، على قبلة الحبيب ، فيما هو أقرب إلى السحر .

وما أزال أحتفظ بهذا الخف – التعويذة في متاعي رافقني في رحلاتي عبر البحار وفي بلاد الله ... ومن يدري فقد تستيقظ الحورية – المنشودة يوماً ؟

وشاءت الأقدار أن تستيقظ الذكرى بعد حوالي ثلاثين عاماً ، فقد شهدت اتفاقاً في التلفزيون حفل « الباليه » العالمي الذي أقيم في مسرح بولشوفي في موسكو في مطلع العام ١٩٨٧ وخصص إيراده ، ولا سيما من العقود مع شركات التلفزيون في حوالي ثلاثين بلداً ، لمؤسسة رعاية الأطفال « يونيسيف » في هيئة الأمم المتحدة بمناسبة بلوغ هذه المؤسسة عامها الأربعين ، واشترك في الحفل كوكبة مختارة من نجوم الباليه قدموا من المسارح العالمية الأربعة الكبرى : أوبرا باريز ، سكالا ميلانو ، كوفنت غاردن لندن وميتروبوليتان نيويورك ، وأبدعوا ما شاء لهم الإبداع في شبه مباراة على أرفع مستوى بلغة فن الباليه في هذا العصر ، وكان مسك الختام فيه – وهنا بيت القصيد – صاحبتنا مايا بليتستزكايا .

كانت مفاجأة حلوة بعد عهد طويل أن أشهد من جديد ، ولو على شاشة التلفزيون ، نجم مسرح بولشوفي ، ما يزال ساطعاً ، تؤدي مقطوعة من باليه « بحيرة البجع » الخالدة ، ولما قدمها مذيع الحفل قال ما معناه :

« ما جرى العرف ، ولا يجوز ، أن يذكر عمر البالرينا ، ولكننا في هذه الأمسية في حالة فريدة ليس لها في تاريخ « الباليه » سابقة : إن السيدة مايا بليتسسزكايا ... قد بلغت الستين عاماً » !

والواضح أن في أداء رقص « الباليه » من الإرهاق ما ينهك الصبايا وقلما تتجاوز بالرينا في مهنتها عقدين اثنين من السنين أما أن تظل إحداهن « البالرينا

الأولى » أربعين عاماً وأن تقدم على الظهور في حفل عالمي وهي في الستين فهذا ما ليس له مثيل ولن يكون له مثيل .

وعادت إليّ في انتهاء عرض التلفزيون ذكريات مسرح بولشوفي بعد هذا الزمان الطويل أفلت حلاله نجوم كثيرة عرفتها إذ ذاك على مسرح السياسة والحكم ومسارح أخرى .... وإنما ظل نجم واحد : عميدة مسرح بولشوفي .

والحديث عن مسرح بولشوفي يقتصر غالباً على فن « الباليه » ، وفي هذا إجحاف إذ أنه يحجب ناحية أخرى ذات شأن في هذا المسرح ، ألا وهي : عظمة الإخراج .

ولقد أتيح لي أن أشهد المسرحية الواحدة في عدة مسارح عالمية فكنت أقارن بينها ويبدو لي أن مسرح بولشوفي يتفوق في الإخراج ، وأذكر من قبيل الدلالة المشهدين التاليين :

في مسرحية « ينبوع السرايا » للكاتب الروسي بوشكين تنشب معركة ضارية يتقاتل فيها جماعات من قبائل « المونغول » وإخراج مثل هذه المعركة قد يتحقق في ستوديوهات السينما حيث الفضاء الرحب والآليات العديدة والحيل الميكانيكية البارعة ، أما إخراجها على خشبات المسرح فما أظن أن مخرجاً يقدم عليه ، ولكن مسرح بولشوفي توفق في أن يخرج ، في حدود المسرح ، معركة ضارية وحشية دامت بضع دقائق بدت كأنها واقعية حتى ... خفقت لها قلوب بعض الحاضرات !

أما المشهد الثاني ففي مسرحية « الحصان البرونزي » للكاتب بوشكين أيضاً ، وفيها يطوف نهر النيفا في بتروغراد — لينينغراد اليوم — وليس من السهل إخراج فيضان نهر على المسرح ولكن المرء يشهد في مسرح بولشوفي ما يخيل إليه ، من حركات الإردية والسجف التي غطيت بها خشبات المسرح

ومما يجري فوقها ، أنه نهر جارف عارم تقوم من حوله الشوارع والأبنية المعروفة في لينينغراد وتحمل طيات أمواجه الأنقاض والأشجار وما جرف الفيضان . بلغ من عظمة الإخراج أن بعضهم خشي تدفق الماء على المنخفض الذي يعزف فيه أعضاء الجوقة الموسيقية بالقرب من المسرح مباشرة !

وختاماً شهدت في كواليس هذا المسرح مشهداً من أطرف ما عرف هذا المسرح على كثرة ما عرف في عمره الطويل ، أورده فيما يلي :

من الأعراف المتبعة في موسكو أن تقام حفلة في مسرح بولشوفي على شرف الوفود أو الشخصيات الكبرى القادمة إلى الاتحاد السوفييتي ، وتقضي المراسم بأن يتوجه ضيف الشرف عقب انتهاء المسرحية إلى كواليس المسرح لتهنئة الممثلين وشكرهم وتقديم باقات الزهور للممثلات ، فلما كانت زيارة الأمير سيف الإسلام البدر وصحبه من الوفد اليمني ، وقد كنت وسفير مصر نرافقهم دوماً — قصدنا جميعاً إلى مسرح بولشوفي وعرضت فيه الباليه الرائعة « بحيرة البجع » ، وتوجهنا بعد العرض إلى الكواليس فكان اللقاء بين الوفد اليمني وبين الراقصات الباليرينات مشهداً ظريفاً لا أنساه : اليمنيون في العمائم واللحى ، وفي الجبب والسراويل وفي الزنانير والخناجر وقبالتهم الباليرينات الفارعات الناحلات وقد غطت وجوههن أصباغ التجميل ، كاسيات عاريات إلا من سجف من الحرير الأبيض الرقيق تتموج حول خصورهن .

كان اللقاء مشهداً مسرحياً عفوياً وكأنه لوحة مقتبسة من حكايا ألف ليلة وليلة ، يبدو فيها ، إذا شط بالمرء الخيال ، رسل الملكة سبأ القادمون من اليمن السعيدة يستقبلهم سرب من الراقصات في بلاد سليمان الحكيم !

وما لنا وللخيال وللتاريخ البعيد : كان المشهد لقاء عالمين اثنين في المكان

والزمان ، وفي المفاهيم والأعراف : عالم الشيوخ والقضاة من المملكة اليمنية الأحمدية المتوكلية ، وعالم الراقصات في عاصمة اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية !

عالمان ... بينهما برزخ لا يبغيان !

توسط بلغراد

وزعت المقصورات في مسرح بولشوفي بين السفراء وفقاً لمراسم الأقدمية ، وكانت تجمعني مقصورة واحدة وسفراء يوغوسلافيا وفنلندا وفرنسا . كان سفير فرنسا المسيو « موريس دوجان » وزوجه لا ينقطعان عن الحديث والتعليق يتوجهان إليّ : ذلك أن سفير فنلندا كان يجهل اللغة الإفرنسية تماماً أما سفير يوغسلافيا فكان يلم بها إلماماً .

ولم يكن حديث الزميل الإفرنسي وزوجه يخلو من طلاوة ولكنهما كانا يسرفان فيه ، وكنت أستمع من قبيل المجاملة . فلما نشبت حرب القناة وشاركت قوات فرنسا في العدوان انقطعت الصلات الدبلوماسية بين بلدينا فأخذت وسفير فرنسا نتحاشى ، ما وسعنا ، التحية والكلام ، وبالتالي أخذ المسيو دوجان وزوجه يتجهان بالحديث في المقصورة إلى سفير يوغسلافيا نيكونوفيتش ولم يكن يدرك معظم الحديث . ثم أن المرء في المسرح أحوج إلى سماع الموسيقا والممثلين والممثلات ، حتى صاق ذرعاً وزهق فقال لي ليلة :

ـ ما قولك بتوسط بلغراد لإعادة الصلات بين دمشق وباريز .... في مسرح بولشوفي على الأقل ؟

الفنان النمر

في حفل افتتاح مهرجان الصداقة والسلام ، في ملعب لينين في موسكو قُبل على جناح السلك الدبلوماسي رجل عجيب المنظر والأطوار يحسبه المرء ملاكماً أو مصارعاً جاء يتحدى الناس : مديد القامة ، قوي البنية كبير الرأس متجهم الوجه في أنف غليظ وشعر أسود كث طويل . كان يتجول بين صفوف المقاعد ويطيل التفرس في الوجوه ، واقترب مني وحدجني بنظراته عميقاً .

وتساءلنا ما شأنه فما يسمح في موسكو لمثل هذه المخلوقات الشاذة بغشيان أوساط السلك الدبلوماسي .

بعد أيام أبلغني مدير المراسم أن هذا الرجل هو النحات العالمي المشهور آغوب نيقوغوسيان ، وهو مواطن سوفييتي من أصل أرمني يقيم في موسكو وأنه اختار من ألوف الأجانب الذين شاهدهم في المهرجان رأس روجة سفير سيلان ورأس سفير سورية ليصنع لكل من الرأسين تمثالاً .

تعرفت إلى نيقوغوسيان وقصدت إليه في الستوديو فإذا هو طيب أنيس وديع ، ولكنه حين يعمل ينقلب إنساناً متوتراً مخيفاً رهيباً في نظراته وحركاته : كان يبتعد عني بضع خطوات ، وبيده كتلة الغضار ، ويحدق بي ملياً في نظرات قاسية مرعبة في شبه نوبة عصبية ، ثم ينقض فجأة بكتلة الغضار على نموذج التمثال وكأنه النمر ينقض على فريسة .

والظريف ما أكده لي مراراً من أنه سعيد بوقوع اختياره على سفير سورية — دون سابق علم منه — فقد سمع الكثير عن موقف السوريين النبيل من بني قومه الأرمن اللاجئين إلى سورية في أيام محنتهم ومحاولة إبادتهم على أيدي الأتراك في مطلع الحرب العالمية الأولى .

وبعد قصدي الستوديو بضع مرات تم صنع النموذج المبدئي للتمثال ، والحق

أنه لم يرق لي فقد بدوت فيه أكبر سناً مما كنت عليه ، مقطب الحاجبين مغرقاً في التأمل وكأنني أحمل مشاغل الدنيا على كتفيّ . ولحظ الفنان ما خامرني فقال لي في لهجة قاطعة مانعة :

– من السهل صنع تمثال يرضي غرور السفير ... ولكن الفن لا يخادع .. إنك في الأعماق سابح في التأمل والخيال ... كما تبدو في هذا التمثال .

وأعاد قوله هذا إلى خاطري ذكرى بعيدة : قبل ثمان سنوات كنت عضواً في وفد سورية إلى مؤتمر اليونسكو في باريز ، وكان هنالك فنان إفرنسي يرسم صور بعض أعضاء الوفود سريعاً ثم يعرض صورته لمن يرغب فيها . من عجيب الاتفاق أن الفنان الإفرنسي رسمني إذ ذاك في أشبه ما يكون بما صنعه النحات الأرمني من بعد .

من يدري ، لعل عيني الفنان تنظران جلياً في أعماق النفس !

غادرت موسكو ولما ينجز التمثال نهائياً ، ودارت الأيام ونسيت أمره . بعد سبع سنوات كنت في روما فهتف لي السفير السوفييتي فيها يعلمني أنه تلقى صندوقاً مرسلاً إليّ عن طريقه . كان في الصندوق تمثال الرأس ، ولم يتبدل عن النموذج البدائي فما ارتحت إليه ، واحترت ما أنا صانع به : فلا يليق أن يبقى في صندوقه ، ولا أود أن أتظاهر بعرضه على أعين الناس .

كان على بعد خطوات من مقر السفير في روما ، في شارع « الديغا » ، مدخل فرعي لحديقة « بورغيزي » الشهيرة ، وكنت أقضي فترة من عصر كل يوم ، ما وسعني ذلك ، في تلك الناحية من الحديقة ، وهي هادئة وغير مطروقة كثيراً ، للتجول والاستجمام . وكان في تلك الناحية رواق طويل ، بين صفين من الأشجار الباسقة ، تقوم على يمينه وعلى شماله قواعد رخامية عليها تماثيل

رؤوس جماعة من مشاهير الرجال من كريستوف كولومبوس إلى ميكيل أنجلو ، ومن جوليوس قيصر إلى غاليليو غاليله . لحظت أن الناس لا يتطلعون إلى هذه التماثيل ولا يعيرونها اهتماماً فكنت أقول في نفسي : لو أن هنالك قاعدة شاغرة لوضعت عليها تمثال رأسي ، فمن الراجح أنه لن يدري به أحد فيظل في رعاية من حوله من المشاهير دهراً طويلاً !

وأخيراً بعثت بالتمثال إلى دارنا في دمشق ، فلما قدمت إليها وجدته معروضاً في ركن بارز من قاعة الاستقبال ، ولكني علمت من ثم أنه ما أكاد أغادر البلد حتى يوارى التمثال في قاع مظلم من حرانة قديمة منروية ... حتى إذا أعلمت بعزمي على القدوم ظهر التمثال من جديد وهكذا ...

سامحهم الله ! لو عرف صاحبنا بيقوغوسيان ما يلقى تمثاله لتطاير شرر غضبه ، وهو الصال – المر ، من موسكو إلى ديار الشام !

المؤتمر العشرون التاريخي

منعطف في مسيرة الاتحاد السوفييتي

شاءت الأقدار أن تشهد موسكو ، بعيد وصولي إليها ، حدثاً مفاجئاً فريداً في تاريخ الاتحاد السوفييتي ، كان من جرائه تحول جذري في اتجاهات المجتمع وبداية عهد جديد . ذلك هو تقرير خروتشيف عن سلفه ستالين .

كانت موسكو تترقب انعقاد المؤتمر العام للحزب الشيوعي السوفييتي في مطلع العام ١٩٥٦ وهو أمر له شأنه قدم من أجله حوالي ألفين اثنين من مندوبي الحزب من أرجاء الاتحاد كافة ، وخمسون وفداً يمثلون الأحزاب الشيوعية في العالم فضلاً عن حوالي مائتين من المراسلين والمراقبين الأجانب . زاد في شأن هذا المؤتمر أنه أول مؤتمر عام للحزب يعقد بعد وفاة ستالين . ولكن ما جرى في المؤتمر تجاوز كل توقع وحساب ، وكان أن دخل المؤتمر العشرون في التاريخ .

طلع فيه الرفيق نيكيتا خروتشييف الأمين العام للحزب الشيوعي بتقرير واف أظهر فيه جوزيف ستالين الزعيم الأكبر وأبو الشعوب ، على حقيقته : طاغية سفاح . نزل به من الجوزاء إلى الغبراء ، وبلغ الأمر بعد بضع سنوات ، أن نقلت رفات ستالين من الضريح المقام في الساحة الحمراء حيث كان يرقد إلى جانب لينين .

كان هذا التقرير منعطفاً تاريخياً في طريق الشيوعية طوى عهداً من ماضي الاتحاد السوفييتي ومعه صاحبه ستالين وفتح عهداً جديداً في اتجاهات الحكم وكان لها آثارها لا في الاتحاد السوفييتي فحسب بل في نهج الشيوعية والسياسة العالمية حتى اليوم .

لم يستتر التقرير على أعين الناس ، بالطبع ، ولكن تسرب منه الكثير ، عن

قصد ، ولا سيما إلى الصحف والمجلات اليسارية في عواصم الغرب ، والراجح أن التقرير جاء في حوالي مائتي صفحة وأن تلاوته استغرقت بضع عشرة ساعة في خمس جلسات وأنه كان مدعماً بملاحق فيها صور ووثائق وإحصاءات ومستندات .

وموجز ما في التقرير أن ستالين ، هذا الطاغية السفاح ، اندفع في الإرهاب والنفي والمجازر اندفاعاً رهيباً وأن عدد ضحاياه ، وهم في الكثرة الغالبة من الأبرياء ، في حدود ستة ملايين ضحية ، منهم جماعات مختارة من رجال الثقافة والطب والفنون ، ومنهم شعوب اجتثت من ديارها في الجنوب وحملت إلى مجاهل سيبيريا ، وأن مدير الشرطة السرية « بيريا » كان يده اليمنى يقترف ما يشاء كيف يشاء .

ويذهب التقرير إلى أن ستالين انفرد بالحكم ، خلافاً لما تقضي به أنظمة الحزب فلم يعمد إلى قيادة جماعية ولم يرجع إلى مكتب سياسي أو لجنة مركزية عليا ، بل تعالى وتسامى لوحده وفرض ، فيما يقارب الألوهية ، عبادة شخصه على الناس ، وكان لهذا كله أوخم العواقب منها ، على سبيل المثال ، أنه وثق شخصياً بأدولف هتلر وعقد معه معاهدة عدم الاعتداء في صيف العام ١٩٣٩ ، نام على هذا الميثاق فإذا به يفيق ، بعد أقل من عامين اثنين ، على الهجوم النازي الصاعق فكان مفاجأة لم يكن مستعداً لها وكان من جرائها ذلك التراجع في المرحلة الأولى من الحرب وما كلفه من الضحايا والدمار .

ويخلص التقرير إلى أن ستالين أجرم بحق الاتحاد السوفييتي فقد حال عهد الإرهاب دون نموه وتقدمه وأن جيلاً كاملاً من أبنائه عانوا كثيراً من جراء البطش والإرهاب .

وأنه أجرم بحق الاشتراكية ، فقد شوه سمعتها وصورتها في أذهان الناس

وعرقل سيرها التاريخي .

وأنه أخيراً فيما اقترف بحق الناس في حياتهم وحرياتهم وكراماتهم أساء إلى الإنسانية جمعاء .

حطم تقرير خروتشييف أسطورة الطاغية ستالين . هذا في الاتحاد السوفييتي ولكن كم عرف العالم من طغاة لما تحطم أساطيرهم .

منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة دعا سيدنا إبراهيم الخليل : ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ .

وتلك الأصنام ، في قديم الزمان ، أمرها يسير : كانت أحجاراً وأخشاباً لا تنطق ولا تسمع ، ولا تملك نفعاً ولا ضراً ، ولكنها تطورت ، مع الأيام والأجيال ، فإذا بها من بني الإنسان ، والإنسان أخطر مخلوق على وجه الأرض .

أصنام من بشر تعلو وتتسامى في كبرياء واختيال ، وفي بطش وجبروت ، ومن تحتها شعوب راكعة خانعة طوعاً أو كرهاً ، مسايرة منافقة ، خوفاً أو طمعاً .

ولا نحتاج أن نوغل بعيداً في التاريخ ولدينا في القريب أصنام عرفناها وعاصرناها .

هل يعقل أن شعباً راقياً واعياً مثل الشعب الألماني يرفع أدولف هتلر ، هذا الدخيل الغريب الأطوار ، إلى شبه مصاف الآلهة حتى صارت تحية القوم صبح مساء : هايل هتلر !

هل يعقل أن شعباً حضارياً طلع على الدنيا بعصر النهضة وبأمجاد روما ينقاد كالأعمى والقطيع لرجل : بنيتو موسوليني ، هو في تصرفاته أقرب إلى الممثل الهزلي منه إلى القائد الزعيم !

هل يعقل أن ألف مليون من البشر يرون في ماوه تسه تونغ المعصوم الملهم الأوحد ويكون « كتابه الأحمر » وكأنه كتاب منزل لا يأتيه الباطل !

هنالك أصنام أقل شأناً ولكنها ليست أقل خطراً على شعوبها :

في الشرق الأقصى نصب كيم إيل سان نفسه فرعوناً على شمال كوريا منذ أربعين سنة من هذا القرن العشرين !

في أندونيزيا كان أحمد سوكارنو يختال في زينته كالطاووس فوق شعبه الطيب المسالم الصبور .

في أقصى الغرب عمد الجنرال بيرون إلى التضليل والديماغوجية حتى حظي وزوجه « ايفيتا » بعبادة الجماهير .

في القارة الأوروبية أغلق أنور خوجه الأبواب على مواطنيه في ألبانيا وقال « أنا ربكم الأعلى » .

في قلب القارة السوداء بلغ الأمر أن أحدهم أعلن نفسه امبراطوراً ، « صاحب الجلالة بوكاسو الأول » على ثلاثة ملايين من الحفاة والجياع .

اللهم أجرنا من غرور الحاكمين ونفاق المحكومين !

أطل الربيع على موسكو في أعقاب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي . ومقدم الربيع بهجة في أزهاره وطيب زمانه في أرجاء الأرض كلها ، ولكنه أعمق أثراً في بلاد الشتاء القاسي الطويل : بعد حوالي ثمانية أشهر من كابوس الصقيع والثلوج والظلام ينفذ صبر الناس وتضيق صدورهم فينطلعون إلى بشائر الربيع في شوق شديد .

هذا الربيع الأول الذي شهدته في موسكو لم يكن ربيع الطبيعة فحسب بل كان ربيع المجتمع والنظام والسياسة :

أول ربيع عرفه الاتحاد السوفييتي منذ ثلاثين عاماً استمر حلالها شتاء ستالين الرهيب ، لم يعرف فيه الربيع جيل كامل من الناس .

أول ربيع بدت في جوه نسيمات منعشة من الطمأنينة ، منذ قصى ستالين ، ما كانوا يصدقوبها وقد استقرت في أعماقهم عقدة الفزع الأكبر من طغمة « بيريا » ومجاهل سيبيريا .

أول ربيع يسمع فيه المرء نقداً لبيروقراطية بعض أجهزة الإدارة وتزمت فريق من موطفي الحزب المحترفين ولما ينعمون به من الامتيازات والمغانم .

أول ربيع يعتشى فيه قصر الكرملين هواء طلق جديد يدعو إلى فيادة جماعية في روح عملية واقعية تتصل بصميم الحياة وسير الأحداث في عالم اليوم .

كان هذا ربيع نيكيتا حروتشييف الأمين العام للحزب ، ابن الريف الأوكراني ، وكأنه حمل معه إلى حجرات الحزب ومكاتبه نسيمات طلقى من سهول بلاده الفسيحة الواسعة الآفاق .

لم يقتصر هذا الربيع على داخل الاتحاد السوفييتي بل شهد فيه العالم وجهاً جديداً لهذا الاتحاد :

كان ستالين قابعاً وراء أسوار فصر الكرملين ، يسمع عنه العالم ولا يراه ، وكان يمثل الاتحاد في الندوات الدولية والمؤتمرات وزير الخارجية فاتسلاف مولوتوف ، وهو ليس من الدبلوماسية لا في قليل ولا كثير : وجه عبوس قمطرير ، ونظرات قاسية باردة كأنها الرياح في شتاء سيبيريا ، لا يصدر في حواره إلا عن « نييت » وهي كلمة النفي والسلب في اللغة الروسية حتى عرف برجل « النييت » ! وحرام أن يمثل هذا الرجل الشعب الروسي الطيب السموح والرضي الطروب والمحب للدعة والسلام

فلما أطل على موسكو الربيع أطل معه على العالم وجه جديد : نيكيتا خروتشييف ، وهو على النقيض كل النقيض مما ألف الناس من قبل : وجه ضاحك في مرح يشارف التبذل والمجون ، صريح في طلاقة تبلغ التحدي والإحراج ، تواق إلى الصلات والحوار فيما يقرب من الثرثرة والفضول . وجه إنساني مليء بالحياة فيما له وفيما عليه .

لم يكن ظهور هذا الوجه الجديد إطلالة عابرة من بعيد بل قصد بنفسه إلى أقصى الغرب ، إلى عرين الرأسمالية في أميركا فكان أول أمين عام للحزب الشيوعي السوفييتي كسر الطوق وانفتح على الغرب .

سبقه في هذا الانفتاح في عهد القياصرة بطرس الأكبر حين تقرب من أوروبا في إنشاء العاصمة الجديدة وبناء المرافىء والأساطيل ، وكاترين الكبرى حين استضافت في قصورها فلاسفة الغرب والفنانيين . كان خروتشييف أقل طموحاً وإلى التواضع أقرب فإنما قصد إلى الغرب لأمر يتصل بصميم الشعب وحياته : رغيف الخبز !

كان يحز في نفس خروتشييف ، وهو الفلاح ابن الريف ، أن تعجز بلاده عن إنتاج القدر الكافي من الحبوب لتغذية أبنائها فتعمد إلى شراء مئات الملايين من الأطنان كل عام من الدول الرأسمالية .

لماذا تلازم ناحية الضعف في الزراعة الاتحاد السوفييتي في حين أن إمكانياته لا حدود لها ؟

لماذا ينتج الفدان في أميركا ، وسطياً ، ثمانية أضعاف ما ينتجه في الاتحاد السوفييتي وليس في تباين أحوال الجو وطبيعة التربة ما يبرر هذا الفارق الكبير ؟

قصد إلى الولايات المتحدة الأميركية في زيارة لم يكن يعبأ فيها بالمراسم من أصحاب البيت الأبيض أو بخطب الكونغرس الأميركي . كان همه أن يشهد

بأم عينيه أوضاع الزراعة وأن « يمسك بالثور من قرنيه » كما يقول المثل الإسباني .

وفي مزرعة من ولاية أوهايو في « منطقة الحبوب » في الوسط الغربي ، قضى يومين وليلة يطلع ويستطلع ويجول من مستوصف العناية بالأبقار إلى ورشة تصليح الآلات الميكانيكية وخرج من هذه الزيارة مندفعاً في تصريحات جريئة ، في قلب أميركا ، دهش لها العالم ، منها اعترافه بثقالة البيروقراطية في بلاده وبنجاح الفرد المقدام .

في الغرب ، تصريحات يغمز فيها من قناة العقائديين المتزمنين من سدنة الحزب الشيوعي وكهانه لا يفارقون مكاتبهم وأنه خير لهم أن يعيشوا يوماً في مزرعة من أن يقضوا سنة في مكتبة !

وعاد إلى بلاده ليعمد إلى إصلاحات جذرية ..... لولا .

تكاد تتوقف الحياة في ريف روسيا في جو الشتاء : غطاء أبيض من الثلوج يلف الأرض كلها تتجمد معه الأنهار إلا في الباطن والأعماق حيث تجري المياه وتعيش بعض الأحياء .

كذلك كانت الحياة السياسية في شتاء ستالين طوال ثلاثين عاماً : رجل واحد غمر في جبروته الاتحاد كله ، جمود وسكون إلا في الخفاء .

فلما أقبل ربيع خروتشييف وأخذت تذوب تلك الثلوج الطاغية لحظ المراقبون في موسكو دبيب الحياة : دبيباً رقيقاً وئيداً من نشاط سياسي وظاهرة معارضة وشبه انشقاق . ذلك أن خروتشييف حطم ستالين ولكن بقي أنصار ستالين :

اجتث خروتشييف تلك الدوحة من فوق الأرض ولكن بقيت جذورها عميقة قوية حية ، وظلت عشرات الملايين من الناس وفية لستالين من ذرى

الأحزاب الشيوعية إلى القواعد الشعبية ومن كبار المثقفين اليساريين إلى العامة من الكادحين .

اعتقد هؤلاء أن ستالين هو القائد الملهم وهو أبو الشعوب وحامي الشيوعية والديار فليس من السهل أن ينزلوا به ، بين ليلة وضحاها ، من الأوج إلى الحضيض .

طوال ثلاثة عقود من السنين عاش هؤلاء مع صورة ستالين المجيدة : في قامته المديدة وشاربيه العريضين ، في سماته الشرقية ونظراته الواثقة يتجلى فيها سيماء الرجولة ، ألفوا هذه الصورة وأحبوها وقدروها وعززوها فدخلت في صميم حياتهم وفي ذكريات شبابهم وفي عهد نضالهم فلا يستطيعون ولا يريدون أن ينزعوها من الأعماق ولو قيل في الرجل ما قال الإمام مالك في الخمر !

وليس مثل هذا الوفاء بالعجيب ولا بالجديد : هنالك ظاهرة طالما سادت حياة الكثيرين من رجالات الفكر والأدب والسياسة إلى المناضلين عامة : آمنوا في عهد الشباب بعقيدة وعاشوا معها ، وفي آمالها وأحلامها وأوهامها ، وعملوا من أجلها ، حتى إذا بلغ أحدهم سن النضوج وتبين له بطلان هذه العقيدة فإنه قلما يتخلى عنها أو ينقلب عليها . فقد صارت هذه العقيدة جزءاً من كيانه الروحي والثقافي والوجداني فيظل لها وفياً ولا يبدلها تبديلاً ، عقيدة قد يرفضها العقل يوماً ولكن يحتضنها القلب دوماً .

إنها المحبوبة الأولى : قد تتنكر وتخادع ، وقد يبدو للكهل العاشق كيدها ، ولكنه يؤثر التجاهل والتعامي على أن ينزع من دخائل قلبه ما أرست فيه أيام الشباب : ما الحب إلا للحبيب الأول .

كان أنصار ستالين يعلمون أنه لم يكن ملاكاً .. ولا يعقل أن يكون ملاكاً . هل توطد الثورات بالعناق والقبل ؟ وهل تكسب الحروب بالورود والرياحين ؟

ثم أن الرجل مات وفات فلم هذا التشهير وهذه الفضائح من بعده ؟ و لم هذه الطعنة في صميم الاتحاد السوفييتي والحركة الشيوعية العالمية ؟

قد يجوز أن تأتي مثل هذه الطعنة عن يد الأوساط الرجعية في الغرب مما ألفته بعض المجلات والإذاعات هناك . أما أن يعمد إليها خليفة ستالين في مؤتمر الحزب في قلب موسكو فهذا غاية الإثم والفواحش من الفسوق والضلال .

وبعد فمن الإنصاف أن لا تنسى أفضال الرجل : كان الاتحاد السوفييتي في السنين الأولى من عمره محاطاً بالأخطار يتآمر عليه أعداء الثورة ويحاربونه داخلاً وخارجاً فقضى عليهم ومهد للثورة سبيلها ووطد للاتحاد أركانه .

وجاء غزو النازيين ، هذا الغزو المفاجىء الغادر في الحرب العالمية الثانية فخرج منها ستالين ظافراً وحطم الصليب المعقوف في قلب برلين ورفع مكانه الراية الحمراء ومكن للاتحاد السوفييتي من اتساع الرقعة ومن المكانة الدولية ما لم يسبق مثيله في التاريخ .

وأخيراً بالإضافة إلى أنصار ستالين كان الكثيرون يرون أن اسم ستالين على بطشه وإرهابه ، قد دخل في التاريخ واقترن بأمجاد الاتحاد السوفييتي في ثورته وفي حربه الوطنية ، وأنه من الإساءة إلى الاتحاد السوفييتي أن يلطخ تاريخه ، دون جدوى ، بتلك الفظائع والآثام .

وزاد في النقمة على خروتشييف زهده ، بعض الشيء ، في الأصول العقائدية الماركسية اللينينية ، وتعريضه بالمتزمتين بها ، وهم دماغ الحزب المفكر ، وكذلك حملته على موظفي الحزب المحترفين ، وهم عضلات الحزب القادرة ، وأخيراً اندفاعه في تصريحات مرتجلة فيها تعريض بنقائص أجهزة الاتحاد السوفييتي وإشادة بتفوق الغرب .

كان الشائع في موسكو أن سادة الكرملين لا يسيرون وراء خروتشييف

صفاً واحداً . والشائعات في موسكو كثيرة نظراً لضيق موارد الخبر اليقين . من اليسير على السفير في لندن مثلاً أن يلم ، قليلاً أو كثيراً ، بما يدور في أوساط حرب المحافظين الحاكم أو حزب العمال المعارض من خلال الصحف أو جلسة مجلس العموم أو الأحاديث في النوادي والحفلات ، أما في موسكو فإن أسوار الكرملين عالية وألسنة أولي الأمر قصيرة ولا تنشر حريدة البرافدا أو تذيع وكالة تاس إلا بقدر معلوم .

تراءى لنا في حفلات الكرملين أن خروتشييف معزول عن أكثر رفاقه من أعضاء المكتب السياسي الأعلى ، لا يرافقونه في جولاته بين الحلقات ولا يشاركون في أحاديثه ومرحه وانطلاقه وكأنهم متفرجون يبرمون بما يشهدون .

كان الظن السائد أن في ذلك المكتب السياسي ، من ذروة الحزب والحكم ، فريقين اثنين يعملان حبا إلى جنب ولا يطيق أحدهما الآخر : فريق يرى الانفتاح والانطلاق سبيلاً وعلى رأسه خروتشييف ، وفريق الأوفياء لستالين المحافظين وعلى رأسهم سوزلوف .

ويشاء عبث الأقدار أن يكون هذان الرجلان في أقصى ما يكون التباين بين الرجال مظهراً ومخبراً . سوزلوف حجة الحزب في الشئون العقائدية والرقيب الأعلى على حرمة الماركسية اللينينية . خروتشييف فقير الزاد في هذا الميدان وإنما عرك الحياة وعركته ويدرك الواقع في حس فطري سليم .

سوزلوف مديد القامة هزيل نحيل كل ما فيه خطوط مستقيمة وزوايا قائمة . خروتشييف ممتلىء الجسم إلى قصر كبير الرأس منتفخ الأوداج إلى حمرة يبدو كل ما فيه مكوراً مستديراً .

سوزلوف مترفع منعزل وفي هندامه لمسة من الأناقة وعليه سيماء الجامعيين ، لا يفارق موقعه من الحفل وندر أن تحدث إلى السفراء أو الضيوف ، وكأنه

يبرم بالحفل وبمن فيه وينطلع إلى الخلاص والعودة إلى مكتبه .

حروتشييف لا يعنى بهدامه ولا يعبأ بالمراسم يتابع التنقل بين حلقات الحفل ، يتحدث في فكاهة ومرح ويبادل الأنخاب جزلاً طروباً .

كانت لنا الظواهر والله يتولى السرائر : المعروف أن سوزلوف راهد في السلطة والمناصب ، لا تروق له ولا يسعى إليها وأنه راض في مقامه في الذروة العليا من الشؤون العقائدية . إذاً فمن وراء سوزلوف ؟

كنا نلحظ في حفلات الكرملين ليونيد بريجبييف ، عضو المكتب السياسي ، وكنا نطلق عليه لقب « الجنتلمان » أنيق الهندام ، بهي الطلعة ، طلق الوجه في ابتسامة حلوة ، يتحدث في أنس وطلاوة . وكان الشائع أنه لم يحز إلى فريق وظل بين بين .... يؤيد سوزلوف في عقائده ويساير خروتشييف في إجراءاته ، وكأنه صدق عليه القول المأثور :

يصلي وراء الإمام علي ، ويأكل على مائدة معاوية !

﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ لم نكن ندري أن بريجنيف هو لولب الفريق المناهض لخروتشييف وزعيمه في الواقع ، وأنه يمهد طريقه إلى السدة العليا في هدوء ورتابة ودون تسرع وتظاهر .

بعد سبع سنوات ، وفي ليلة ليلاء ، أطاح بريجنيف بخروتشييف ، وألقى به خارج الكرملين وحل مكانه .

قبع خروتشييف في داره لا يبدي ولا يعيد وتوالى خلفاؤه من بعده : ليونيد بريجينيف ، قسطنطين تشرنينكو ، يوري أندروبوف فتجنبوا كل ما عرف عن سلفهم في المظهر والأسلوب ، احترسوا من التسرع والانفعال ومن العفوية والارتجال ، ومن مزيد المرح والانطلاق ، وعمدوا إلى حسن الهندام وحفظ اللسان ، هذا في المظهر والأسلوب ، أما في الجوهر فقد ساروا جميعاً في اتجاهاته ،

سيراً وئيداً متردداً يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ، تجاه الهدفين الرئيسيين الاثنين في السياستين الداخلية والخارجية : اعتدال نسبي في التزام الاشتراكية وانفتاح محدود على الغرب .

و﴿ لكل أجل كتاب ﴾ بعد ثلاثين عاماً من شتاء ستالين ، بعد ثلاثين عاماً من ربيع خروتشييف يقدم خلفه الحالي ميكائيل غورباتشوف ، في حكمة وروية ، وفي ثقة واطمئنان على إصلاحات جذرية في النظم الاقتصادية وفي حقوق المواطنين وحرياتهم في الرأي والنشر والانتخاب ، هي ركائز عهد جديد يطلع بوجهه الإنساني على الاتحاد السوفييتي وعلى عالم الشيوعية ، إصلاحات كانت تساور خروتشييف ولم يجد السبيل السوي إليها ولم يلق الجو المشجع من حوله فوقف دونها : لم يكن قد آن أوانها .

اليوم يكاد يكون نيكيتا خروتشييف نسياً منسياً . ما بلغ من القدر أن يرقد إلى جانب لينين في ضريح الساحة الحمراء وما أراد له رفاق الأمس أن يوسد رماده في كوة من سور الكرملين أسوة بعشرات من رجالات الحزب الفائتين ، وإنما دفن في مقبرة في أحد أحياء موسكو الشعبية ، وعلى قبره ، بين حين وحين ، أزهار متواضعة حملها إليه مغمورون من أبناء الشعب .

وقد ينصف التاريخ يوماً هذا الرجل شبه الأمي الذي اندفع في منعطف جديد في تاريخ الاشتراكية ، نشهد آثاره اليوم في توجيه الاتحاد السوفييتي والشيوعية العالمية .

صاحب النِيَافة المطران سماحة

كان يقيم في موسكو مواطن سوري هو المطران سماحة كممثل دائم لبطركية أنطاكية وسائر المشرق في الاتحاد السوفييتي . وهذا المنصب يرجع بعيداً في التاريخ حرص القياصرة من ورائه على توثيق الصلات بين الكنائس الأرثوذكسية الشقيقة وعلى الاعتراف بمكانة أول كنيسة في تاريخ المسيحية . وقد أبقت الثورة على هذا المنصب وعلى الكنيسة التابعة له والتي يرعاها نيافة المطران .

ويسرني القول أن المطران سماحة كان يتمتع بتقدير السلطات المحلية وبشعبية كبرى فكانت كنيسته غاصة بالمصلين ، ولا سيما المصليات ، من كافة أحياء العاصمة وضواحيها ، والحق أنه كان ، وهو يحتفل بالقداس ملء العيون وكأنه يعيد ذكرى الكنيسة البيزنطية في أيام أمجادها وزخرفها وبهائها : قامة مديدة مهيبة ، وشعر أسود فاحم يتدلى إلى الكتفين ، وصوت أجش قوي في اللغات الثلاث اليونانية والعربية والروسية في تلك الملابس الكهنوتية المزينة بالذهب والفضة وسط أمواج من البخور ولهيب الشموع ... بلغ الأمر أن جموع الناس ممن لم تتسع لهم الكنيسة كانوا يقفون حولها ساعات للتبرك من بعيد . وكان كثيرون من أعضاء السلك الدبلوماسي يترقبون مقدم عيدي الفصح والميلاد ليشهدوا المطران السوري يحتفل بالقداس الكبير .

وإذا كان نيافة المطران ابتغى من وراء الكهنوت حسن ثواب الآخرة فإنه لم يكن لينسى نصيبه من الدنيا . كان يهوى جمع الإيقونات الروسية القديمة ، وكانت مائدته تحفل بأشهى المآكل وبأفخر أنواع الفودكا صنعها خصيصاً من أجله بعض الخلص من رعيته .

وتوثقت مع الأيام صلات الود بيننا ، وهو مرح ظريف أنيس المعشر . فقلت له يوماً ، وهو ممتلىء الجسم يشع وجهه صحة وعافية ، ونحن حول مائدة

« كازوسكا » المقبلات الروسية التقليدية :

– لما وصلت إلى موسكو وشاهدتك على رصيف المحطة ، وقد تكرمت باستقبالي ، شعرت بابتهاج كبير .. فقد سبق أن سمعت أخباراً كثيرة عن أزمة التموين في الاتحاد السوفييتي فلما رأيتك اطمأننت وعرفت أنها إشاعات مغرضة !

ودار الزمان ، وبعد حوالي عشر سنوات كنت في دمشق فإذا بي ألقى صدفة سيدنا المطران في شارع البرلمان فكان العناق وتبادل القبل واستعادة الذكريات ثم أعلمني أنه نقل إلى مطرانية أبرشية حوران ، وأضاف ، في شيء من الأسى والحنين :

– يرحم تلك الأيام ....

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾

– صدق الله العظيم –

وعلى ذكر سيادة المطران زار الاتحاد السوفييتي عبطة البطريرك الكسندروس الثالث يرافقه المطران بفون سابا مطران زحلة وحاشية كبيرة . والمطران سابا محدث ظريف يتقد حيوية ونشاطاً رغم تقدمه في السن وشعره الأبيض الجليل . وقد روى لي ما جرى للوفد في المجر ، قال :

قضينا ليلة في بودابست ، ولحظنا أن شقة سيدنا البطريرك في الفندق عادية جداً وظننا أنه ليس في الفندق خير منها . ولكن تبين بعد حين أن القواص – وهو من حرس البطريرك تقليدياً – يبيت في جناح واسع له ملحق ومكتب . ذلك أن القائمين على الفندق شاهدوا القواص في ألبسته المزركشة المذهبة فحسبوا أنه الشخصية الأولى في الوفد !

الصداقة والسلام
بين الواقع والمهرجان

« مير » و « دروجبا » ـ وتعنيان باللغة الروسية السلام والصداقة ـ كلمتان ستظلان ماثلتين في خاطر نصف مليون من الناس ، رجالاً ونساء ، منهم حوالي خمسمائة من السوريين ، قدموا إلى موسكو ليشاركوا في مهرجان الصداقة والسلام في صيف العام ١٩٥٧ .

طوال عشرة أيام ولياليها الملاح كانت هاتان الكلمتان مير ودروجبا على كل شفة ولسان تجمعان ، في جو من النشوة والود ، بين جماعات من كافة العروق والشعوب ، من قارات العالم الخمس ، حظيت بأن تعيش مهرجاناً بلغ الذروة في دنيا المهرجانات . في حياة المرء فترات عميقة الأثر باقية الذكرى ، ويقيني أن ساعات المهرجان هي من هذه الفترات في حياة ضيوف موسكو يحدثون عنها أبناءهم وأحفادهم طويلاً .

والمهرجانات العالمية كثيرة ، ولا سيما في دول شرق أوروبا ، ولكن سادة الكرملين حرصوا على أن يكون هذا المهرجان فريداً في أبعاده وتنظيمه وروعته : ذلك أنه وقع قبيل المهرجان حادثان خطيران أساءا إلى الاتحاد السوفييتي وإلى سمعته في العالم . الأول ما كشف عنه اللثام من جرائم ستالين وصحاباه ، والثاني تدخل الجيش الأحمر لقمع انتفاضة المجر بالدم والنار . لذا أرادت موسكو أن يكون المهرجان صورة صادقة عن الاتحاد السوفييتي في عظمته وسلطانه ولا سيما في يديه المبسوطتين إلى كافة شعوب الأرض للتعارف والتعاون والإخاء .

حشدت موسكو لهذا المهرجان كل الإمكانيات ، وإمكانيات الاتحاد السوفييتي عظيمة . أما التنظيم فقد برع فيه القوم إلى حد الإعجاز . وهكذا

اقترنت الإمكانيات الكبرى بالتنظيم الدقيق فجاء المهرجان كما أرادوا له حتى لتصح فيه المقولة القديمة : لا عين رأت ولا أذن سمعت !

كانت موسكو هي الداعية والمضيفة ولكن الاتحاد السوفيتي كله شارك بالطبع في المهرجان فقد قدمت إلى موسكو ، من أرجاء الاتحاد كافة ، مئات من الفرق الفولكلورية والرياضية تجمع الصفوة المختارة من صبايا وشباب الاتحاد ، في الثياب التقليدية وزينتها . أذكر من قبيل المثال لا على سبيل الحصر بعضها :

من حوض نهر الفولغا جاءت مجموعات من المنشدين ، (كورس) ، تؤدي في أصواتها الجشة الخشنة تلك الأغاني الجميلة ، والقوم يجرون المراكب البطيئة الثقيلة على ذلك النهر الحبيب إلى قلب كل روسي .

من جبال القفقاس قدمت كواكب من الفرسان ينقضون ، في اندفاع السيل ، على ظهور الخيل في تشكيلات أهرامية بارعة جريئة وكأنهم ولدوا وعاشوا على صهوة الجياد وكأن الجواد جزء من الفارس فهو رهن بنانه .

من أوكرانيا جاءت فتيات تتدلى ضفائر الشعر الطويلة وشرائطها الحريرية الملونة حتى خصورهن ، وأدلين جلابيبهن المضفاضة حتى سترن أقدامهن فلا يرى المرء الحركة والخطى وإنما يخطرن ، أو يزحفن ، في رتابة ورشاقة ، وكأن قوة سحرية تدفع بهن من ثنايا الجلابيب .

من ضفاف بحيرة بايكال في أواسط آسيا قدمت فرق تعزف على أوتار « البالالايكا » أنغاماً وادعة شجية يودع بها القوم هنالك الشمس الناحلة تتوارى في ذلك الشتاء القاسي الطويل في فيافي سيبيريا .

و لم يقتصر الأمر على أبناء الاتحاد السوفييتي فقد أدت فرق الضيوف نصيبها في مشاهد مختارة من الفنون الفولكلورية الوطنية ، وقامت فتيات الوفد السوري

برقص السماح من تدريب الشيخ عمر البطش من حلب ، فكنّ ملء العيون ومحط الأنظار . وهكذا حفل كل يوم وكل ليلة بمنهاج ذي طابع قومي خاص ... وجاءت القمة في يوم الختام وليلة الختام :

في يوم الختام اصطف عشرة آلاف فتى وفتاة ، بالملابس البيضاء ، في الساحة الكبرى من ملعب لينين ، وقد أخفى كل منهم في طيات ثيابه مجموعة من الأعلام الصغيرة المختلفة الألوان ينشر منها ، حين يتلقى الإيعاز ، العلم ذا اللون المناسب وفق مكانه في الساحة ووفق المشهد المرتقب . وفجأة ، وكأنما هي فعلة ساحر ، تنقلب الساحة البيضاء إلى علم كبير للاتحاد السوفييتي فيه المنجل والمطرقة والنجمة الحمراء ، ثم تعود الساحة بيضاء . وفجأة تنقلب إلى حديقة وارفة فيها الزهور والأعشاب والممرات والبحيرات . ثم تعود الساحة بيضاء . وفجأة تنقلب إلى صورة لينين المألوفة وهو يخاطب الجماهير ، ثم تعود الساحة بيضاء ، وفجأة تبدو فيها الكلمتان ،: مير ، ودروجبا ، السلام والصداقة .

كانت هذه آية النهار ، أما آية ليل الختام : خيم الظلام والسكون على ملعب لينين وسلطت الأنوار على المسرح في وسط الساحة وعليه سرب من الراقصات ، البالرينات ، وكأنهن الفراشات البيضاء ، يؤدين مشهداً من باليه « مسرحية جيزيل » : كمال في الخطوات والحركات ، في القفز والدوران ، في الموسيقا والألحان ، في الديكور والأضواء ، كمال يأخذ بالألباب ، وكأن البالرينات جمعن مرونة الخيزران إلى قوة اللولب الفولاذي ، وخفة الفراشة إلى رشاقة الحوريات .

قد يقال إن المهرجان دعاية على نطاق عالمي . وهذا صحيح ولكنها نعم الدعاية في هذا الأسلوب البهيج الظريف . والواقع أن الكثرة الغالبة ممن شاركوا في المهرجان لم يكونوا مناصرين للشيوعية ولا مناوئين لها ، وما قدموا للتعرف

إلى النظام السوفييتي عن كتب ، وإنما أتيحت لهم فرصة لزيارة موسكو فاغتنموها . وما أظن أن واحداً منهم انقلب شيوعياً من وقع ألحان البالالايكا أو من إغراءات الراقصات . وما كان دعاة المهرجان يترقبون هذا ، ولكن تحقق الهدف الرئيسي : عادوا جميعاً إلى بلادهم وقد احتفظوا بصورة طيبة محببة عن الاتحاد السوفييتي هي خير مما كانوا يتصورونه من قبل وأفضل بكثير مما تصوره دعاية الغرب .

قد يقال إن المهرجان كان سبيلاً إلى سوق تجارة سوداء بادل فيها الضيوف ما حملوه من الساعات وأجهزة الترانزيستور وآلات التصوير لقاء المرايا المفضضة والإيقونات الكنسية ورجاجات الفودكا .

أغلب ظني أنه لم يكن لهذه السوق شأن كبير وإنما أغمض المسؤولون العين عنها ليتيحوا لشبان موسكو الحصول على ما طالما تاقوا إليه من مصنوعات الغرب وليعود الضيوف ببعض الحاجات التذكارية من الاتحاد السوفييتي .

وبعد أفلم يكن التبادل التجاري ، منذ فجر التاريخ ، خير سبيل للتعارف والتقارب بين الشعوب ؟

لم تكن حفلات المهرجان ومباهجه ، على روعتها ، هي الغاية ، وإنما هي إطار للهدفين الرئيسيين : دعم السلام العالمي ، وتوطيد الصداقة بين الشعوب . ترى ما الذي حققه المهرجان في هذين الأمرين ؟

أما الصداقة فقد كانت تعقد طول مدة المهرجان اجتماعات وحلقات من أعضاء الوفود متباينين في العروق والألوان يتعارفون ويتواعدون على التراسل والتزاور ، ويتبادلون بعض الحاجات للذكرى . وقد تكون هذه الصلات عابرة تمضي مع المهرجان . ولكنها على كل حال فتحت في أذهان الكثيرين آفاقاً على شعوب العالم الأخرى . والأكيد أن المضيفين الروس كانوا هم الراغبين في هذا

المجال فقد كسبوا صداقة المشتركين في المهرجان جميعاً .

أما السلام فقد كان الحماس الجماعي لدعم السلام جلياً . ويقيني أنه لو ترك الأمر للأجيال الصاعدة ، وهي الكثرة العالبة في جمهور المهرجان ، لانطفأت الحروب على وجه الأرض مرة أولى وأخيرة .

ودعوة موسكو إلى السلام ليست من قبيل الدعاية ولا من قبيل المثالية : الواقع الملزم أن الاتحاد السوفييتي بحاجة إلى السلام في عهوده كلها من بداية الثورة حتى السنين الحاضرة .

في البداية لم يكن بد من السلام لتوطيد الثورة وللسير في تحقيق أهدافها وكان أول ما عمد إليه لينين أن عقد الصلح مع الألمان في مفاجأة مدهلة يقصد إنهاء الحرب كيما تتركز الجهود على شؤون الثورة في الداخل .

وكذلك عمد ستالين ، رعبة في السلام ، إلى إجراء أكثر مفاجأة وإذهالاً : أراد أن يتجنب الحرب مع ألمانيا النازية فعقد مع أدولف هتلر معاهدة عدم اعتداء في صيف العام ١٩٣٩ وكان لعقد هذه المعاهدة وقع الصاعقة في الأوساط الشيوعية والتقدمية في العالم وتساءل الناس : كيف يمد سيد الكرملين يد الصداقة إلى زعيم النازية ؟

كان ستالين صادقاً في جنوحه إلى السلام مع ألد خصوم الشيوعية ، وإنما خادع هذا فقد كان يبغي من المعاهدة أن تطلق يداه في غزو بولونيا ، وقد اقتسماها سراً ، وما لبث بعد عامين اثنين ، بعد أن أتى على بولونيا وعلى غرب أوروبة ، أن انقلب على الاتحاد السوفييتي في مفاجأة مذهلة وشنها حرباً ما توقعها ستالين ولا استعد لها في البداية .

كان هذا في الماضي ، وما مضى فات ، أما في الحاضر فليس أحرص من الاتحاد السوفييتي على السلام : ذلك أنه بلغ ما لم يكن يحلم به القياصرة ولا

ليبين مما لا مزيد عليه من السلطان والتوسع والنفوذ .

أما سلطانه فقد توطد من المحيط الهادي شرقاً إلى الستار الحديدي غرباً ومن حوله في أوروبة الحزام الواقي من الدول الاشتراكية الموالية .

أما التوسع فإن نظرة إلى الخريطة تبدي مكاسب الاتحاد السوفييتي من الحرب العالمية الأخيرة : جمهوريات استونيا وليتونيا وليتوانيا في البلطيق ، ومقاطعة بروسيا وما حولها من ألمانيا ، ومقاطعة كاريليا من فنلندا ، ومناطق من بولونيا والمجر ورومانيا في سبيل « تسوية الحدود » معها ، واسترجع شبه جريرة ساخالين ، وفوق هدا جزر الكوريل الثلاث في بحر اليابان . ما أظن أن أدولف هتلر يرتاح في قبره ، لو كان له قبر ، وقد كان من جراء الحرب التي شنها أن حصل الاتحاد السوفييتي على كل هذه المكاسب وثبت قدميه في برلين ودباباته على نصف ساعة من هامبورع !

أما النفوذ فإنه لا يعتمد على قوات الجيش الأحمر وأساطيله في البحر والجو فحسب ، وهي هائلة رهيبة ، بل إن للاتحاد السوفييتي أصدقاءه ومناصريه في الأوساط التقدمية والجماهير الكادحة في القارات الخمس فضلاً عن أن أغلب الأحزاب الشيوعية تتطلع إلى موسكو وأن بعضها يعمل بإيحائها .

هل يرد ، بعد ما بلغ إليه الاتحاد السوفييتي ، أن يعمد إلى الحرب ؟ إنه إلى تثبيت الوضع الحالي وإلى السلام أحوج .

والواقع أن موسكو حاولت مدة عقدين من السنين أن تضفي على مكاسبها وعلى الحدود القائمة صبغة شرعية دولية ، لا سيما وأنه لما تعقد معاهدات الصلح بعد الحرب العالمية الأخيرة . وكان أن توفقت أخيراً في إجماع دول أوروبة والولايات المتحدة الأميركية على توقيع اتفاق هلسنكي في العام ١٩٧٥ وهو يقر ضمناً حدود دول أوروبة الحالية والوضع الراهن .

ولا يخدعنَّ حب السلام هذا أحداً فإنه لا يعني الغفلة أو التسامح : وإذا مست مصالح الاتحاد السوفييتي ، المباشرة أو غير المباشرة ، من قريب أو من بعيد ، فإن ضرباته قاصمة لا تعرف رحمة ولا غفراناً . وفي بطشة الجيش الأحمر في بودابست في العام ١٩٥٦ ، وفي براغ في العام ١٩٦٨ ، وفي إسقاط طائرة شمال كوريا في العام ١٩٨٣ دروس بليغة !

وقد يتساءل الكثيرون : هل يتفق حب الاتحاد السوفييتي للسلام وهدفه الرئيسي في نشر النظام الشيوعي في العالم أجمع ؟

الحق أنه كان في عقيدة قادة الثورة السوفييتية في سنيها الأولى أنه لا يستقر الأمر حتى يقضى على الرأسمالية وتعم الشيوعية بلاد الأرض كلها ، طوعاً أو كرهاً ، وأنه لا راحة لشيوعي حتى يتشيع الناس جميعاً . كان هذا في تلك السنين الدموية اللاهبة الحمراء وفي حميا الحماس والاندفاع . وتوالت الأحداث وتعاقب القادة وحابه العقيدة المثالية واقع الحال : تبين أنه لا جدوى من فرض الشيوعية بالقوة والإكراه بل لا حاجة إليه . ذلك أن النظام الرأسمالي في نظر القوم سائر إلى الزوال في مستقبل قريب أو بعيد ، والزمان خير حليف ، وأن الشيوعية واجدة طريقها إلى شعوب الأرض في خطى قد تكون بطيئة أو قد يعتريها نكسة ولكنها أكيدة بحكم ما يدعونه في منطق الماركسية ، حتمية مجرى التاريخ .

تلك أمانيهم . وإذا اعتبر المرء الاتجاهات السائدة في الأوساط الثقافية والعمالية في كثير من بلاد العالم ، وتطور نظم الحكم في الدول الناشئة ، بدا له أن هذه الأماني ليست كلها من قبيل الحلم والخيال .

سعد وملك العث

يقوم في لينينغراد معهد للغات الشرقية له شأن في عالم الاستشراق وكان آخر أعماله نشر مخطوطة للملاح العربي « أحمد بن ماجد » الذي رافق أمير الماء البرتغالي « فاسكو دوغاما » وإليه يرجع الفضل في نجاح رحلات الرواد البرتغاليين البحرية ومكتشفاتهم الجغرافية .

زرت هذا المعهد برفقة وفد ثقافي سوري يزور الاتحاد السوفييتي ويضم جماعة من الأساتذة الجامعيين ، فذكر لنا مدير المعهد أنه يبحث منذ سنوات عن سر كلمة غريبة ترد كثيراً في المخطوطات العربية وهي : « ياكبيكج » وأنه رجع إلى القواميس والأصول فلم يفلح ... وإذا بالدكتور سامي الدروبي عميد كلية الآداب في جامعة دمشق إذ ذاك ، يجيبه :

– إن « كبيكج » في عرف العرب المتأخرين ملك يحفظ الورق من العث ، فكانوا يتضرعون إليه لحفظ صفحات المخطوطات من التلف .

وعجب رجال المعهد من هذا الإيضاح وبدوا في حيرة منه فقال أحدهم ، بين الدعابة والجد :

– إننا نلقى عنتاً في حفظ أوراق المخطوطات ... ترى هل يستجيب لنا ملككم إذا توجهنا إليه ؟

رافق هذا الوفد واحد من خيرة التراجمة المعتمدين في موسكو اسمه « ساييف » يتحدث باللغة الفصحى ويذكر أن أصل اسمه « سعد » وهو مسلم من المونغول ، وكان في عداد الوفد الشيخ مصطفى السباعي ، عميد كلية الشريعة إذ داك ، فقال له يوماً ، مقلداً لهجته العربية الفصحى ، ومتظاهراً بالجد :

– ويحك يا سعد ! إن بني قومك هدموا ديارنا وحضارتنا .
فأجابه « ساييف » بكل وقار :
– حقاً والله .. وإني لأعتذر إليكم يا سيدي !

عِلْمٌ جديد حول أسوار الكرملين

في أبراج السفارات العاجية في موسكو ولد علم جديد : هنالك الفيزياء والكيمياء والفيزيولوجياء ... وهذا العلم هو الكرملينوحياء ، نسبة إلى الكرملين ، وأساسه معرفة ما يدور وراء أسوار الكرملين وما سيصدر عنه .

في حلقات الحفلات وفي سهرات الشتاء الطويل يجمع الدبلوماسيون بين ما قاله مسؤول كبير وبين فقرة في جريدة البرافدا ، بين خبر من هنا وإشاعة من هناك ... ويتبادلون الآراء ليصلوا من ورائها إلى التنبؤ بما ستكون عليه أحوال الجو السياسي في الاتحاد السوفييتي : من هو النجم الصاعد في المكتب السياسي الأعلى ؟ من هي النجوم الآفلة في اللجنة المركزية للحزب ؟ هل تسوء العلاقة مع الصين الشعبية ؟ هل يعتدل الموقف تجاه بودابست ؟ هل تنقص المساعدات لفيديل كاسترو ؟ وكأن الكرملينوحياء ، أو فلنقل « لعبة الكرملين » هي الشاغل الأول والهواية الأثيرة لدى الأسرة الدبلوماسية يدلي كل فيها بدلوه .

ولهذا العلم خبراؤه وأساطينه في سفارات الدول الكبرى ترجع هذه إليهم وتأخذ بآرائهم وقد تعمد إلى مقررات خطيرة على أساسها ، ولكن بدا لي أن هذا العلم هو إلى الكهانة والتنجيم أقرب وأن اللعبة من قبيل الرهان : ذلك أن الدوائر المسؤولة العليا في موسكو تمتاز بمستوى رفيع حازم من النظام والكتمان والرقابة قل مثيله في عواصم الدنيا حتى يمكن القول إنه لا يتسرب عنها شيء لا صراحة ولا تلميحاً . وإذا تسربت بعض الأنباء والأقاويل والإشاعات فإنما يكون ذلك مقصوداً لغاية معينة ، وبقدر معلوم . بل يحدث أن يتسرب ما لا صحة له وفقاً لهدف مرسوم .

اعتماداً على الكرملينوجياء ، هذا العلم الطريف ، والنتائج التي يقود إليها ، تبعث كثير من السفارات بتقاريرها ، ويبرق كثير من المراسلين الأجانب

بالأخبار والمقالات إلى الصحف والمجلات العالمية :

من حسن حظ الدبلوماسيين أنه لا يطلع على تقاريرهم ، في أغلب الأحوال ، إلا قلة من المسؤولين في وزارات الخارجية ، عددهم دون أصابع اليد الواحدة ، وأنه قلما يعمل بهذه التقارير وسرعان ما تطوى في ظلمات المحفوظات . لو أن أكثر هده التقارير بعثت من مرقدها ، بعد حين ، لوجد فيها المرء ، على ضوء الواقع والأحداث ، العجب العجاب !

ومن حسن حظ المراسلين ، والصحافيين عامة ، أن حياة الخبر أو المقال في الصحيفة أو المجلة قصير ، وأنه قلما تقرأ صحف الأمس الدابر أو المجلات القديمة العهد .. لو نفض الغبار عن مجموعات كثير من الصحف والمجلات وأعاد المرء تلاوة ما وَرَدَ فيها من تحليل وآراء وتكهن ، على ضوء الحاضر ، لوجد كذلك العجب العجاب !

كنت يوماً في زيارة لإحدى دور النشر في عاصمة عربية ، وكان جانب من جدران المكتبة فيها يحوي مجموعة من أعداد جريدة من أمهات الجرائد العربية . وخطر لي أن أتناول أحد المجلدات وأقلب صفحاته فوقع نظري على مقال لكاتب وصحفي شهير كان يكتب مقاله أسبوعياً فيترقبه الناس حتى إذا ما صدر هز العالم هزاً .

أخذت أتأمل فيما جاء في المقال ، على ضوء الواقع ، بعد أقل من ثلاثة أعوام على تاريخ المقال : لو أعيد هدا المقال لأضحك وأبكى : أضحك لما فيه من أحكام قاطعة مانعة في مستقبل الأحداث ، وكأن صاحبها يسامر الوحي في الأفق الأعلى ، أحكام خاطئة ذهبت مع الريح . وأبكى لما في إيراد تلك الأحكام من اعتداد وغرور ولما أدت إليه في الرأي العام العربي من تضليل وأوهام .

من رحمة الله وستره أن هناك النسيان ومرور الزمان !

مصاهرة الكرملين

الزواج الباكر شائع في الاتحاد السوفييتي يقبل عليه الناس جميعاً وقلما تجد رجلاً عَزَباً . ولا يرجع هذا إلى رغبة في : « إكمال الدين » كما نقول معشرَ المسلمين ، وإنما تفرضه اعتبارات معاشية واقتصادية في مقدمتها الحصول على سكن مستقل : ذلك أن دمار الحرب أدى إلى أزمة شديدة في السكن ، وأن على الخطيبين أن يصبرا ردحاً طويلاً حتى يتاح لهما السكن ، أما العزب فلا أمل له في مسكن خاص .

في إحدى حفلات الكرملين ضمتني حلقة وجماعة من الزعماء السوفييتيين وكان في مقدمتهم المارشال بولغانين رئيس مجلس الوزراء وهو جليل الطلعة في غاية الدماثة والأنس ، فتعجب من أنني ، لمّا أتزوج وقال ، وهو روسي من مواليد موسكو ، إن النساء الروسيات جميلات ، وأشار إلى السيدة بيكاترينا فورتشيفا : وهي أرق النساء مكانة في ذروة الحزب وتولت من ثم منصب وزيرة الثقافة ، وعلى نصيب كبير من الجمال وأصاف : إن لها ابنة شابة في جمال أمها ....

واعترض ليونيد بريجنيف عضو المكتب السياسي الأعلى إذ ذاك ، وهو الأبيق الوسيم العارف بمواطن الجمال في بلاده فقال :

— لا ريب في أن النساء الكرجيات في القفقاس والنساء المولدافيات ، على حدود رومانيا هن أجمل بنات حواء على وجه الأرض .

واحتج نيكيتا خروتشييف ، وهو من أوكرانيا وكانت ترافقه زوجه ، وليس لها من محاسن السيدة فورنشيفا نصيب فقال :

— ليس الموضوع مسابقة في الجمال ... إن النساء الأوكرانيات هن خير الزوجات والأمهات ....

وتطلع إلي « كاغانوفيتش » . وهو يهودي والمرجع الأعلى في الشؤون الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي وقال ضاحكاً :

– من الأنسب أن يتزوج السيد السفير امرأة مسلمة من التاجيك أو التاتار أو التركمان ....

وتشعب الحديث وكانت كلمة الختام لسفير إيران السيد مسعود الأنصاري ، فقال :

– من حق السيد السفير أن يتزوج أربع نساء وما ملكت يمينه ... فلم لا يختار رفيقة من كل الجمهوريات السوفييتية الخمس عشرة ؟

وبلغ الحديث جماعة من السفراء في الحفل فعلقوا عليه ، وكان التقارب بين الاتحاد السوفييتي وسورية في أوجه فقال أحدهم :

– هذه خطوة جديدة في التقارب .. سفير سورية يصبح (داماداً) في الكرملين !

والداماد ، كما هو معروف ، لقب فخري رفيع كان يطلق في عهد الأتراك على من يحظى بمصاهرة أسرة سلاطين بني عثمان !

سبوتنيك : أول قمر اصطناعي

شهدت هذه الأرض ، في الغابر من ملايين السنين ، عصر الجليد والعصر الحجري وعصر الحديد ... ثم توالى عليها سراعاً في الأزمنة الحديثة عصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الذرة ، وأخيراً شهدنا في موسكو مولد عصر الفضاء .

في اليوم الرابع من تشرين الأول للعام ١٩٥٧ أطلق العلماء السوفييتيون حول الأرض أول قمر اصطناعي – سبوتنيك باللغة الروسية – في تاريخ البشرية . أعلنت الإذاعات السوفييتية النبأ وحملته وكالة « تاس » إلى أقطار الدنيا في نفحة من الاعتزاز والفخار بالمجتمع الاشتراكي الذي استطاع أن يجعل من أغلى أحلام الإنسانية حقيقة واقعة .

وفي لمح البصر تدفقت الجماهير في شوارع موسكو يتعانقون ويهتفون في جو من الدهشة والفرح وكانت الإذاعة تتابع أخبار السبوتنيك السابح في الفضاء فتستمع إلى نفسه الرتيب ... بيب ... بيب ... بيب ، وكأنه صرخة المخلوق الوليد ، يجري بسرعة تقارب ثلاثين ألف كيلو مترٍ في الساعة وينجز دورة كاملة حول الأرض في حوالي ساعة ونصف الساعة ، أي أنه يدور خمس عشرة مرة حول الأرض في اليوم الواحد .... مما لم يسمع الناس بمثله في آبائهم الأولين والآخرين ! وذكرت الإذاعة أن الناس شاهدوا هذا القمر في براغ وأوسلو ونيوزيلاندا ... بالاستعانة بمناظير بسيطة ، والمؤسف أن الغيوم التي غطت سماء موسكو في ذلك اليوم لم تسمح برؤيته فيها .

دشن الاتحاد السوفييتي عصر الفضاء قبيل الاحتفال بذكرى الأربعين عاماً لثورة تشرين . ومن الثابت أن المسؤولين بذلوا كل الجهود لتحقيق هذا التوقيت ولهذا مغزاه الكبير : طوال ثلاثين عاماً عمد الغرب إلى تطويق الاتحاد السوفييتي وعزله عن العالم وإلى الوقوف في وجه رسالته الاشتراكية على وجه الأرض ،

وها هو ، وقد بلغ الأربعين من سنيه ، يوجه أبلغ رسالة من أعالي السماء وليس بمقدور أحد أن يعترضها .

لو أن كارل ماركس أو لينين شاهد هذا اليوم لكان منه متعة العمر !

سؤالان كانا يدوران في أوساط السلك الدبلوماسي : كيف تخلفت الولايات المتحدة الأميركية ، وهي التي تدعي التفوق ، عن الاتحاد السوفييتي في هذا الميدان فكان له السبق المجيد ؟

وكيف جهلت دوائر استخبارات الغرب أخبار هذا السبوتنيك حتى الظهور في الفضاء ؟

خيبة في واشنطن ، وفرحة في موسكو تتجاوب في كثير من أقطار الأرض ، وقديماً قال شاعرنا :

والناس من يَلْقَ خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

وفي أيامنا هذه تدور حول الأرض عشرات الأقمار الاصطناعية وتسبح في الفضاء مراكب ضخمة تتسع للمخابر ، وللقائمين عليها ويبدو القمر الأول أمامها لعبة أطفال فقد كان قطره لا يتجاوز ستين سنتمتراً ووزنه لا يعدو ثمانين كيلوغراماً ! ولكنه كان الرائد .

عاش الإنسان منذ فجر التاريخ سجيناً في كرته الأرضية ، وهي أقل من أن تذكر في عوالم الكون من ملكوت الله . وها إن عصر الفضاء يفتح أمامه رحاباً لا حدود لها ، من يدري ما تخبؤه لقادم الأجيال ؟

في ذلك الجو البهيج في موسكو كانت تدور الحكاية التالية :

حاول العلماء السوفييتيون أكثر من مرة إطلاق السبوتنيك فلم يفلحوا ، حتى علم أحدهم أن بين السبوتنيك وزوجه السيدة سبوتنيكوفا خلافاً وأنهما منفصلان لا يطيق أحدهما الآخر ، فتقدم من السبوتنيك وهمس في أذنه أن زوجته قادمة على الفور ..... فانطلق السبوتنيك في رحاب الفضاء لا يلوي على شيء !

زيارات وضيوف : سيف الإسلام

تتوالى على موسكو وفود من رجالات الدول والشخصيات الكبرى قادمة من كافة أقطار الأرض ، فما يخلو أسبوع من زيارة ، ويلقى القادمون مزيد الرعاية والإكرام فيقام على شرف كل وفد حفل كبير في قصر الكرملين وسهرة في مسرح بولشوفي ورحلات إلى لينينغراد وبعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي .

ويشارك سادة الكرملين في هذه الحفلات فكنا نتساءل كيف يتاح لهم أن يصرفوا إلى أعمالهم وشؤون بلادهم وهم في غمرة متواصلة من مراسم الاستقبال والتكريم والوداع . وكان الزعم ، من قبيل الدعابة ، أن لكل مسؤول كبير في موسكو شبيهاً يظهر في الحفلات وما إليها بينما الأصيل معتكف في مكتبه !

ويسود هذه الزيارات تنظيم دقيق قل مثيله في البلاد الأخرى ، وكأن حشداً كبيراً من الموظفين يعملون بالتناوب ليل نهار رهن دائرة المراسم . أورد من قبيل المثال أنه لدى زيارة الرئيس السوري شكري القوتلي أدت أحداث حرب القناة إلى تبديل منهاج الزيارة على حين غرة لما رأى الرئيس أنه من الأفضل العودة إلى سورية قبل اكتمال الزيارة ، فتقرر بعيد العصر إلغاء حفلات ورحلات والاقتصار على حفل وداع في الكرملين في الأمسية من ذلك النهار . وعجبنا هل يستطاع إقامة الحفل والدعوة إليه في هذه الفترة القصيرة من الوقت ؟ فما مضت ساعتان حتى كانت بطاقات الدعوة مطبوعة جاهزة وموزعة على حوالي ألفين اثنين من المدعوين ، وتم الحفل على أبهى ما يكون من المقاصف والزينة والمنهاج الفني الذي تخلله !

وتقضي الأعراف بأن يدعى السفراء إلى سهرة مسرح بولشوفي في كل زيارة ، ويغلب أن تمثل في هذه المناسبة الباليه الروسية المشهورة « بحيرة البجع » وهكذا أتيح لي أن أشهدها عشرات المرات حتى حفظت أكثر مقطوعاتها

الموسيقية عن ظهر قلب أتخيل معها مشاهدها فأستعيد في الخاطر روعة الباليه في ذلك المسرح الفريد .

وتقضي المراسم بأن يدعى السفراء للاشتراك في الاستقبال والوداع في مطار موسكو ، على الأغلب ، وهو بعيد عن قلب العاصمة وقد ألفنا هذا المطار والطريق إليه حتى لتكاد السيارة تتجه إليه تلقائياً ! وفي هذا خطر لأحد الزملاء أن يقام لكل سفارة جناح ملحق في المطار يقيم فيه السفير أحياناً ويعمل فيه كسباً للوقت وتجنباً للطريق المتجمدة في صقيع الشتاء .

من الزيارات الطريفة التي شهدتها مقدم وفد يمني على رأسه ولي عهد اليمن سيف الإسلام الأمير محمد البدر . لم يكن لليمن تمثيل دبلوماسي في موسكو فكان على السفارات العربية فيها ، والمقتصرة إذ ذاك على سورية ومصر ولبنان ، أن ترعى الضيوف وأن تحيطهم بالجو العربي الذي قد يتطلعون إليه .

والمعروف أن سادة الكرملين يولون المراسم عناية كبيرة ، وهي في موسكو أرفع شأناً منها في كثير من عواصم الغرب . وكنا نتساءل ماذا سيكون موقف إخواننا القادمين من صنعاء وليس لهم عهد بهذه المراسم ؟

ولما وصلت طائرة الوفد اليمني نزل منها العجب العجاب من كل فاكهة زوجان : قضاة وشيوخ من اليمن ، ومستشارون من مصر ، وسكرتيرون من فلسطين ، وتجار مس عدن ، وخدم من حضرموت ، ومرافقون عسكريون في أزياء شتى تذهب من ملابس المغاوير المرقطة إلى الثياب العربية الفضفاضة وفي جنباتها السيوف .

ويسعدني القول أن سمو الأمير البدر أنقذ الموقف على خير وجه : كان في زيه اليمني التقليدي موضع الإعجاب : عمامة كبيرة بيضاء تتدلى من خلفها : (العزبة) ..، جبة طويلة سوداء ، سروال أبيض ، وخف أحمر وشال ثمين ألقي

على الكتف ورنار عريض مزركش في الوسط فيه خنجر معكوف مرصع بالجوهر .

وقد أسر الأمير الشاب القلوب في شبابه المشرق ووجهه الأسمر الباسم وملامحه العربية الأصيلة ، كان يسير ، والسبحة في يده ، في هدوء واتزان يستعرض حرس الشرف ويرد التحيات على المستقبلين في نبل ووقار ، وكأنه مارس هذه المراسم وخبرها منذ عهد طويل .

ولما انتهى الاستقبال في المطار تقدم مني سفير السويد « سولمان » ، وهو عميد السلك الدبلوماسي قضى سبع عشرة سنة في موسكو وتربطني به صداقة وثيقة لا سيما وقد أقمت في بلاده . فقال لي :

ـ لقد اشتركت في استقبال الكثيرين من رجالات الدولة في هذا المطار ، وأظن أن ضيف اليوم هو أبلغهم أثراً في نفسي !

وعلى ذكر اليمن روى لي الدكتور فريد زين الدين ، وقد كان الممثل الدائم لسورية في هيئة الأمم المتحدة ، الحكاية التالية :

لما تقدمت المملكة اليمنية المتوكلية الأحمدية بطلب الانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة ترددت وفود بعض الدول في الموافقة على الطلب لما علمته من تخلف اليمن في حكومتها وأحوالها ومن ضعف مواردها ... فقامت الوفود العربية بمساع لدعم الطلب مؤكدة أن اليمن من أعرق البلاد حضارة وأن أهلها طيبون محبون للسلام . ووافقت الجمعية العامة على الانضمام فلما تقدم أعضاء الوفد اليمني لتسلم مقاعدهم في القاعة الكبرى وتوجه رئيس الوفد إلى المنبر ليلقي كلمة الشكر التقليدية دهش الكثيرون حين شاهدوا الخناجر في رنانيرهم واتجه بعضهم إلى الوفود العربية يسألون :

ـ أهؤلاء هم أصحابكم محبوا السلام ؟!

رئيس وزراء اليابان

من الشخصيات التي قدمت إلى موسكو وتركت في نفسي أثراً بليغاً رئيس وزراء اليابان « ايشيرو هاتو ياما » .

كان إيشيرو هاتو ياما مقعداً دلف إلى الثمانين من عمره في وجه نحيل شاحب مليء بالغضون والأخاديد ، وإنما يلفت النظر فيه عينان صغيرتان في بريق قوي أخاذ وكأن كل عناصر الحياة تركزت فيهما . وكان يدفعه رجل من حاشيته في عربة ذات عجلتين فلما عزف النشيدان الوطنيان الياباني والسوفييتي في قاعة الاحتفالات الكبرى في قصر الكرملين ووقف الجميع إجلالاً وضع الرئيس الياباني يده على قلبه وهو مسمر في مقعده ، ولم يكن بوسعه أن يفعل أكثر من هذا .

تأملت في الضيف الياباني فبدا لي أنه يتقمص جسماً وروحاً كل الآلام والنكبات التي انصبت على مائة مليون من مواطنيه بعد الهزيمة في ختام الحرب العالمية الأخيرة ، وكأنه بعث مشوهاً من أنقاض هيروشيما وناغازاكي ، ولكن ذلك البريق المشع من العينين الماثلتين الصغيرتين يؤكد أن اليابان ، وقد ركعت على ركبتيها ، ما تزال الحياة كامنة في أعماقها وأنها ستقف على قدميها يوماً لتستعيد جبروتها .

رئيس وزراء فرنسا

قد يعتذر سادة الكرملين عن استضافة من لا يطيقونهم ، أما إذا وجهت الدعوة أو تمت الموافقة على القدوم فإن الرعاية والإكرام لا يقفان عند الاتجاهات السياسية : قدم يوماً إلى موسكو زعيم ألمانيا الغربية الدكتور أدنهاور وهو ، صراحة وجهاراً ، العدو الأزرق للشيوعية ، وقدم من بعده زعيم ألمانيا الشرقية فالتر أولبريخت وهو الحليف المخلص الموثوق ، فلقي كلاهما ، على السواء ، ما درجت عليه موسكو من محاسن الضيافة ويزيد . خرجت عن هذه القاعدة المنطقية زيارة رئيس الحكومة الإفرنسية « غي مولله » .

شاركت في استقبال الضيف الإفرنسي ووداعه وفي حفل الكرملين وحفل السفارة الإفرنسية فشهدت فيما لاقاه من الإحراج عجباً !

ذلك أن غي مولله كان رئيساً للحزب الاشتراكي الفرنسي ، وكانت ثورة الجزائر في أوارها يلقى منها الجزائريون ، المدنيون قبل المجاهدين ، من ألوان التنكيل والعذاب والتدمير على أيدي القوات الإفرنسية ما سارت به الأخبار . كان سادة الكرملين يتألمون لما يجري في الجزائر وإنما أغاظهم أن تقترف هذه الجرائم والمجازر في ظل حكومة اشتراكية فكانوا يبدون للقادم من باريز ، في صراحة تتجاوز الأعراف الدبلوماسية ، سخطهم وسخريتهم لمثل هذه الاشتراكية !

كنا في حلقة في حفل الكرملين على شرف الوفد الإفرنسي ، وكان بيننا سفير إيطاليا الكونت « بونتي » من نبلاء جزيرة صقلية ، وهو قصير بدين مرح ظريف لا تخلو يده اليمنى من قدح ولا تخلو اليسرى من لفافة تبغ ، وكان خروتشييف ، في العادة يهوى مداعبته فتقدم منه وكان ضيف الشرف الإفرنسي

على مقربة منا ، فضرب على كتف السفير حتى ارتج القدح وقال له على مسمع من « غي موللي » .

– إن بين بني قومك في جزيرة صقلية وبين أهل الجزائر صلات الدم والحوار . فلنشرب على شرف صقلية والجزائر ...

ظن السامعون أن الرئيس الإفرنسي سيغادر الحفل ويعود إلى بلاده من فوره ولكنه تجاهل لاعتبارات سياسية انتهازية في بلده !

﴿ ومن يهن الله فماله من مكرم ﴾

صدق الله العظيم

أشرت في المقدمة إلى زيارة الدكتور أدنهاور وقد اتسمت هذه الزيارة بطابع فريد يستحق الذكر :

كان زعيم ألمانيا العربية يعتقد أن دوائر الاستخبارات السوفييتية ستطبع أجهزة سرية ناقلة للصوت في قاعات قصر الضيافة ، الذي سيحل فيه ، ولم يكن لألمانيا الغربية إذ ذاك من سفارة في موسكو . ولذا فَضّل أن يقيم ، وصحبه جميعاً ، في القطار الحديدي الذي قدموا عليه من بون لا يغادرونه إلا لاجتماع أو حفل . ما سبق لضيف أن قبع في قطاره !

والظريف أن سجين القطار هذا توصل في مفاوضاته مع سادة الكرملين إلى الإفراج عن مائتي ألف من أسرى الحرب الألمان !

الرئيس الأندونيزي : سوكارنو

ما عرفت موسكو ضيفاً عمل على أن يحيط زيارته ببالغ الأبهة والفخامة مثل الرئيس الأندونيزي أحمد سوكارنو . وقد طبع الأندونيزيون على التواضع الجم والبعد عن الزهو والخيلاء ولكن يبدو أن زعيمهم خرج على هذا وفي سلطان الحكم قل من كتب لهم التغلب على الغرور .

كان الرئيس الأندونيزي في قمة المجد ولما تزل أكاليل الغار التي ضفرها مؤتمر باندونغ على جبينه طرية ندية ، وكأنه أراد أن يزهو بها أمام شعوب الاتحاد السوفييتي فأتى في حاشية فخمة في زيارة فريدة في بابها .

كنا في الاستقبال فشهدنا جيشاً من المرافقين ينزلون من الطائرة . قيل إن الحاشية الخاصة ، وهي لا تشمل الوفد الرسمي ، كانت في حدود المائتين مرافقاً : منها جماعة التدليك والتمسيد ، وجماعة لكي الألبسة ، وجماعة لتحضير الشراب ، وجماعة للحلاقة والتزيين ، ورتل من المضيفات والوصيفات ....

والظاهر أن الطائرة حملت مجموعة كبيرة من الألبسة والأزياء وملحقاتها ، إذ كان السيد القادم من جاكارتا يبدو في كل حفل أو اجتماع في زي جديد يلفت الأنظار ، من شرقي إلى غربي ، ومن مدني إلى عسكري ، وكان يتباهى بالأناقة وحسن المظهر لا تفارق الابتسامة المغرية شفتيه ، ولا عصا القيادة المرصعة إبطه .

وزيارات رؤساء الدول تجري وفقاً لمراسم معهودة ولكن زيارة الرئيس سوكارنو اتخذت طابعاً شعبياً طريفاً : كان الرئيس سوكارنو في زيارته أقرب إلى المرشح لرئاسة الجمهورية في معركة انتخابية منه إلى رئيس دولة في زيارة رسمية لدولة أخرى . وقد استطاع أن ينفذ إلى قلوب الجماهير رغم أنه لا يعرف

اللغة الروسية فكانت زيارته مهرجاناً خطابياً رائعاً وعيداً حافلاً بالاجتماعات الشعبية .

وكثيراً ما سمعت من الأندونيزيين أن للرئيس سوكارنو أثراً بليغاً عميقاً حين يتحدث إلى شعبه حتى ليعتبرونه ساحراً . أما في موسكو ، حيث درج الناس على التحفظ والفتور في كل ما له صلة بالأجانب ، فقد أحب الشعب هذا الضيف الشرقي الطريف ووجد في تدفقه في الخطابة وفي حماسته اللاهبة وفي حركاته العصبية شيئاً مسلياً فيه مزيج من التمثيل والشعوذة والدعابة . وكان الرئيس سوكارنو يتأبط عصا القيادة لا تفارقه أبداً حتى إذا بلغ ذروة الحماس في خطابه تناولها بيمناه ولاح بها في الهواء كأنه يرسم جسوراً تصل ما بين الساحة الحمراء في موسكو وبين ساحة « مارديكا » الحرية ، في جاكارتا .

والغريب أن هتافات الجماهير كانت تأتي عقب أقوال الرئيس سوكارنو باللغة الأندونيزية مباشرة وقبل أن تترجم إلى الروسية ، حتى إذا أعادها المترجم باللغة الروسية كان الهتاف خافتاً ضعيفاً : ذلك أن الرئيس سوكارنو أثار شعور الناس عن طريق القلب لا عن طريق العقل . استهواهم بطريقته في الخطابة وبأساليبه لا بموضوعات خطبه . والواقع أن ما تحدث عنه من مؤتمر باندونغ إلى تضامن الشعوب الصفراء والسمراء إلى تحرير القارة الأفريقية ... ما أبعده عن مشاغل الحياة اليومية لرجل الشارع في الاتحاد السوفييتي .

وقد لحظت أن الرئيس سوكارنو اتبع في إيراد مناقبه وأمجاده وأفضاله أسلوباً بارعاً ذكياً ظاهره التواضع وباطنه الفخار : كان يكرر في كل مناسبة أنه ليس بمنتزع استقلال أندونيزيا من أنياب الاستعمار ، وأنه ليس بصاحب فكرة باندونغ ، وأنه ليس بالداعي الأول إلى التضامن الآسيوي ـ الأفريقي ... يكرر كل هذا بصوت جهوري حماسي لينتهي منه إلى قوله بصوت خافت وديع أنه « سودارا سوكارنو » أي الأخ أو الرفيق سوكارنو ، وكفى !

والظريف في اللغة الأندونيزية ، كما قيل لي ، أن صيغة الجمع هي صيغة المفرد مكررة فإذا أراد أحدهم أن يقول مثلاً سيارات قال سيارة سيارة ، وهكذا كانت الجماهير تطرب ضاحكة ، حين تسمع الرئيس سوكارنو يناديها « سودارا سودارا » ويؤكد على أنه سودارا ..

كان الشائع أن سادة الكرملين ، وهم لا تخفى عليهم خافية من خلق ضيوفهم ، وفروا للزائر أسباب الترفيه والمتعة وتركوا له الحبل على الغارب . ومن حقه هذا فقد عاشت موسكو ، مدة مقامه فيها ، ثلاثة أيام بلياليها ، في جو من المرح والحبور تتردد في أجوائها كلمة : سودارا .. سودارا ... بالمفرد وبالجمع !

الرئيس البولوني

قدم إلى موسكو في زيارة رسمية فلاديسلاف غومولكا زعيم الحزب الشيوعي البولوني ورئيس حكومة بولونيا . وحكاية هذا الرجل عجيبة : قبل بضعة أشهر كان غومولكا منسياً في غياهب السجن فقد اتهمه أنصار ستالين في بولونيا بأنه يعطف على اتجاهات المارشال تيتو وسجن مع الكثيرين من رفاقه واعتبروا من الزنادقة والخوارج ، وفي ليلة ليلاء قصد خروتشيف إلى فارسوفيا وفي اندفاع وارتجال ، شأن خروتشيف في أكثر إجراءاته ، أخرج غومولكا من السجن وولاه زعامة الحزب ورئاسة الحكم .

كنا في استقبال الضيف البولوني على رصيف المحطة فلما وصل القطار نزل منه رجل هرم متهدم يتحامل على نفسه ويسير في خطى واهنة ، ولما دار علينا وصافحنا لحظت وجهه الشاحب وعميق الأخاديد فيه وعينيه الغائرتين .

وكان إلى جانبي سفير يوغوسلافيا موكونوفيتش ، وهو من العارفين بشؤون شرق أوروبة ، فسألني : ما ظنك بعمر هذا الرجل ؟ قلت : ما أدري ... ولكن يبدو لي أنه تجاوز السبعين .. قال إنه في الواحدة والخمسين ! وهلا تذكر المارشال تيتو ... إنه يبدو في الستين وهو في الخامسة والسبعين ، وقد دشن زيجته الثالثة منذ أشهر ! ذلك أن يد ستالين لم تصل إلى المارشال ولكن هذا المسكين احتضنته الزبانية وقضى أربعة عشر عاماً في جامعة ستالين ....

وتساءلت : في جامعة ستالين ؟ فلما غادرنا المحطة أوضح لي ما قصد إليه قائلاً :

جامعة ستالين تعني في الأوساط الشعبية سجون ستالين وفقاً للحكاية التالية :

تقوم في موسكو جامعة لينين وبناؤها ناطحة سحاب وهي أعلى معالم العاصمة السوفييتية ومن أكبر الجامعات في الدنيا ، يقول الدليل فيها للزائرين : لو أن أحدهم ولد في إحدى غرفها ثم قضى ليلة واحدة في كل غرفة لخرج منها وهو في الستين من عمره ... واتفق أن كان بين الزائرين واحد ممن اكتووا بعهد ستالين فقال : إن « جامعة ستالين » أعظم ! يدخلها ابن الثلاثين أو الأربعين ويخرج منها بعد بضع سنوات في الثمانين !

الرئيس اليوغسلافي

قدم إلى موسكو في زيارة خاطفة شبه سرية الماريشال تيتو وكان قدومه حدثاً مفاجئاً وتاريخياً فالمعروف أن الزعيم اليوغسلافي وقف في وجه ستالين لعشرين سنة خلت ، يوم كان العالم الشيوعي يركع عند قدميه ، وأعلن حق بلاده ، وكل بلد آخر ، في اختيار طريقه إلى الاشتراكية ، وكان أن سقطت صواعق ستالين على تيتو كزنديق فاسق مارق . وعلى كل من تنسم اتجاهه في شرق أوروبة . وفي اعتقاد الكثيرين أن وقفة تيتو إذ ذاك في وجه الطاغية كانت في الجرأة والشجاعة فوق البطولات .

ودارت الأيام وقضى ستالين ودعا خروتشييف المارشال تيتو للتفاهم والمصالحة وكان أن أقر سادة الكرملين ، صراحة وجهاراً ، أن أهداف الاشتراكية واحدة وإنما تتعدد الطرق إليها وأن لكل بلد حقاً في اختيار ما يصلح له منها .

كان سفير يوغوسلافيا في موسكو نوكونوفيتش جاري في ترتيب السفراء وفق مراتب الأقدمية وقد تبين لي أنه خبير بشؤون الاتحاد السوفييتي ومن المقربين إلى المارشال تيتو . كان أسعد الناس بهذه الزيارة وقد ساهم في التمهيد لها واعتبرها كالذروة والخاتمة في خدماته لبلاده ، ومما قال لي عنها :

– خاطرت بلادي في كيانها ووحدتها حين وقف المارشال تيتو في وجه ستالين ، ولكن ظل إيماننا قوياً . ذلك أن الأمر لا يقتصر على نجاح تيتو أو فشله وإنما هو اجتياز منعطف أساسي خطير في مسيرة الشيوعية العالمية .

الوزير المشير عامر

كان من ضيوف موسكو المشير عبد الحكيم عامر وزير الدفاع المصري على رأس وفد من كبار الضباط . وقد شاركت في معظم مراحل زيارته نزولاً عند رغبة سفير مصر ، وكان بيننا صلات هي أقرب إلى الأخوة وفوق الزمالة .

رأيت في المشير المصري إنساناً طيباً ظريفاً وديعاً أسر قلوب كل من عرفوه بحديثه الفكه وحبه للنكتة وإجادتها وبشاشته الدائمة وضحكته القوية العفوية . بدا لي أنه ، وهو القائد الأعلى في زيارة رسمية ، للاتحاد السوفييتي ، يظل ابن الريف المصري الصميم .

هذا في الناحية الإنسانية ، أما في الناحية المهنية ـ العسكرية فقد قام المشير بزيارة بعض معامل الأسلحة وحضر مناورات لطراز جديد من المدرعات وتحدث إلى الأساتذة والطلاب في إحدى الكليات العسكرية ، ولم أرافقه في هذه المشاغل، ولكن كان الشعور السائد لدى الملحقين العسكريين من السفارات الشرقية الذين رافقوه أن القائد الأعلى لقوات مصر المسلحة ، ومن ثم للجمهورية العربية المتحدة ، وفق تعبير مساعد الملحق العسكري السوري ، ما هو حشو هذه الكبة !

عجبت لهذا الانطباع ... حتى جاءت ، بعد أحد عشر عاماً ، حرب الستة أيام !

إمبراطور إيران

قدم إلى موسكو في زيارة رسمية إمبراطور إيران الشاه محمد علي بهلوي ترافقه زوجه ثريا . كانت هذه الزيارة حدثاً في زمانها : فللمرة الأولى ، وقد بلغ الاتحاد السوفييتي الأربعين من سنيه ، يقدم إلى بلد لينين إمبراطور طهران . والواقع أن إيران والاتحاد السوفييتي بلدان متجاوران ولكن شتان ما بين البلدين في النظم والمجتمع سيما وأن إيران كانت إذ ذاك موالية للغرب جهاراً .

لحظنا أن حفلات هذه الزيارة اتسمت بطابع رفيع من الأبهة والجلال ، وكأن سادة الكرملين حرصوا على أن يظهروا للضيف القادم من بلد الأباطرة من آل قاجار أن روسيا ، وإن اعتنقت شعار المطرقة والمنجل ، قادرة على أن تفوق في البدخ والإكرام بلاد العروش والتيجان . وفي قاعة القديس جورج الفخمة من قصر الكرملين توالت الأنخاب ، في أقداح من البلور الفاخر المثقلة بنقوش الذهب ، على شرف — والروس يلفظون الهاء في تفخيم الخاء — شاخن شاخ محمد بخلوي — !

زاد في شأن هذه الزيارة قدوم الإمبراطورة ثريا رفقة زوجها . وثريا كانت تملأ الدنيا وتشغل الناس ، فلا يمضي شهر إلا وصورتها في صدر المجلات العالمية تروي عن حياتها الخاصة ما يثير الجماهير ، ثم إنه ندر في العصور الحديثة أن جلست على عرش بلد امرأة في جمالها ... وأساها الدفين . ولكن كان لقاء ثريا في موسكو ، ولا سيما لدى سيدات السلك الدبلوماسي ، خيبة مريرة ، وأي مرارة !

قبل أسابيع من موعد الزيارة أخذت سيدات المجتمع في موسكو يتأهبن للقاء الحسناء القادمة من طهران ، فاستقدمن من دور الأزياء الرفيعة في باريز أحدث الأزياء وأغلاها ، وأخرجن من صناديقهن ثمين الحلي والمجوهرات ، بل قيل إن

بعضهن تدربن على التحية التقليدية الواجبة في لقاء صاحبات الجلالة : ركعة في الساق اليمنى ، تراجع في اليسرى ، ابتسامة فانحناءة ... فلما أقبلن أخيراً في قصر الكرملين لتحية الإمبراطورة ثريا وجدن لديها ما أثار العجب والغيظ والحقد .

كانت الامبراطورة واقفة إلى جانب زوجها شاردة النظرات ، وكأنها في عالم آخر ، لا تعنى بمن يقدم إليها ولا بما يدور حولها وإنما تمد يدها برتابة آلية للتحية . وانطلقت الألسنة تندد بهذا الموقف الغريب وبما فيه من ترفع ودلال ، ومن كبرياء وغرور .

ودار الحفل وثريا لا تتحدث إلى أحد ، وإنما كان قريباً منها شابان من الحاشية يحمل أحدهما معطفاً من الفراء قال العارفون إنه من أندر أنواع الفراء في العالم . حتى إذا أشارت إليه وضعه على كتفيها ، أما الآخر فكان يمسك بولاعة من الذهب مرصعة بالماس والجوهر ، فقد كانت ثريا لا تنقطع عن التدخين وكان هذا المرافق يشعل لها اللفافة تلو اللفافة ... وبدت كأنها في حلم تحيط غشاوة من الأسى بوجهها الصبيح .

وجاءت المفاجأة حين أقبل عليها سفير سورية فانفرجت أسارير وجهها بعض الشيء ، وأخذت تتحدث إليه لماماً . وعجب القوم وساورتهم الظنون ، وإن بعض الظن إثم ، فما كانوا ليدرون بسابق معرفتي بثريا .

خلال مقامي في ألمانيا الغربية كان سفير إيران فيها السيد خليل الأصفدباري ، وهو والد ثريا وبالتالي حمو الشاه . وما كان السيد الأصفندياري ليغادر ربوعه الجبلية في إيران إلى الغرب عن طيبة خاطر ليكون سفيراً في بون فلا هو يطيق الدبلوماسية ولا هي خلقت له ، وإنما كانت زوجه السيدة إيفا ، أو حواء ، ألمانية الأصل من برلين ، وبعد مقام طويل في إيران اشتد حنينها إلى

بلادها فكان أن أسند إليه الشاه منصب السفارة في بون . ولم يكن السيد الأصفندياري يهوى المجتمع الدبلوماسي فعاش في شبه عزلة في دارة جميلة له في ضواحي مدينة كولونيا تشرف على نهر الرين يطيب له فيها صحبة بعض الزملاء المسلمين من الشرق فكان يدعونا إلى دارته سيما وأنه كان ، في معظم الأوقات ، وحيداً فيها .

والواقع أنه ندر أن لقيت السيدة زوجته في دارتها فقد كانت مغرمة بحياة نوادي الليل تقصدها لا للهو والمجون ولا للشرب والغواية وإنما لتعيش في جوها : ذلك الجو الداكن في شبه ظلمة ، العابق بالدخان ، والدافىء بأنفاس الناس ، والداوي بأحاديثهم وموسيقاهم ، تقبع في ركن منعزل لوحدها ، لا تنقطع عن التدخين حتى إذا انفلق الصبح عادت إلى دارتها فألفت زوجها ، وهو المتدين التقي ، يتلو قرآن الفجر .

وفي حياة الناس ما يفوق خيال واضعي القصص والروايات : بدا لي وكأن هذه السيدة حواء ، وقد كانت من ربات الجمال في زمانها ، حلمت في صباها بالأمير الشرقي الوسيم ومن حوله روائع ألف ليلة وليلة في بلده البعيد . وظنت أنه تحقق حلمها حين اقترنت بشاب من أسرة عريقة قادم من بلاد فارس ، ولكن الأحلام قصيرة العمر لا تقوى على ضوء الإصباح ، فما مضت سنين في إيران حتى كانت الخيبة والسراب وكان الحنين إلى بلدها ، فلما عادت إليه كانت الخيبة من جديد فقد دار الزمان وأين خريف العمر من ربيعه ، وأين بون ، هذه القرية الكبيرة ، من برلين عاصمة الأمس الغابر ! وهكذا عمدت إلى الحانات تستعيد في شبه الظلمة من جوها الداكن تلك الأحلام .

عوداً إلى ثريا : كانت تتردد على دارة كولونيا لزيارة والديها فعرفتها فيها لا كصاحبة الجلالة الإمبراطورة . بل كالفتاة ثريا في أسرتها ، ولهذا انتعشت

بعض الشيء بلقائي في حفل موسكو ولم تكن تعرف فيه أحداً .

وما كان القوم على ضفاف نهر الموسكوفا يدرون أن معرفتنا ترجع إلى عهد بعيد على ضفاف نهر الرين .

ودارت مراحل هذه الزيارة « الشاهانية » وسيدات السلك الدبلوماسي يتجنبن الإمبراطورة ثريا جهاراً ، إن لم أقل يقاطعنها ، ولكن بدا لي أن ثريا لم تكن تدري بما يحاك حولها ، ولو أنها شعرت ما إخال أنها تعبأ في كثير أو قليل .

وفي مراسم الوداع في المطار بدت الإمبراطورة ثريا ، شأنها دوماً ، في حلمها الدائم وفي أساها العميق . وأتساءل اليوم : ترى هل نفذت عيناها الجميلتان إلى عالم الغيب فتراءى لها المصير : مصيرها ومصير زوجها : بعد بضع سنين الإمبراطورة العاقر مطلقة تهيم في بلاد الغرب دون هدف ولا أمل ، وبعد عشرين سنة الإمبراطور خليع يغادر وطنه فلا يجد ، وهو في مرض الموت ، بلداً يقبل لجوءه إليه !

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ .

صدق الله العظيم

ما الذي يمسك بهذا الاتحاد العملاق ؟

حضرت جلسة افتتاح مجلس السوفييت الأعلى في موسكو وهو يضم مجلس الشعب ومجلس القوميات ، عقدت في قاعة الاجتماعات الكبرى في قصر الكرملين . ما أظن أن في دولة ندوة أوقع أثراً منها وأجمع بين الملل والنحل من خلق الله : حوالي ألف وخمسمائة عضوٍ قدموا من أرجاء الاتحاد السوفييتي كافة : من بحر البلطيق إلى المحيط الهادي ، ومن بحر الشمال القطبي إلى البحر الأسود ، يتفاوتون عروقاً وألواناً ، لغات وأدياناً ، ثقافة وتاريخاً ، أصلاً وأنساباً ، تقاليد وتراثاً ... من الروسي الأشقر إلى الأوزبكي الأسمر إلى المونغولي الأصفر ...

بدا لي الجمع وكأنه الهيئة العامة لشعوب الأرض خلا وفود القارة السوداء .

يمثل هذا المجلس حوالي مئتي مليون وخمسة وسبعين مليوناً من البشر ينتمون إلى قوميات وأجناس وطوائف يحتاج حصر أسمائها إلى صفحة كاملة ، وإنما أورد بعضها من قبيل المثال والطرافة : أوكرانيون ومولداف ، جركس وتركمان ، تششن ودولغان ، ليتوان وألمان ، أرمن وداغستان ، أوزبيك وكرج ، تاجيك وبشكير ، ياقوت وتيرقيز ، تاتار وكازاخ ... يعيشون في قارتين اثنتين فوق رقعة من الأرض سعتها ثلاثة وعشرون مليون كيلو مترٍ مربعٍ ، أي حوالي مائة وأربعين مرة مساحة سورية أو خمس وأربعين مرة مساحة فرنسا ، ويجاورون اثنتي عشرة دولة من النروج وفنلندا في الشمال الغربي إلى كوريا واليابان في أقصى الشرق مروراً بتركيا وإيران ، على حدود يبلغ طولها ستين ألف كيلو متر !

يجمع مجلس السوفييت الأعلى هذا بين خمس عشرة جمهورية اتحادية وعشرين جمهورية ذات استقلال إداري وعدد من المناطق الخاصة ببعض القوميات ، تربط بينها كلها موسكو العاصمة ، علماً أن آلماآتا ، مثلاً ، وهي عاصمة جمهورية

كازاخستان وتقع في وسط الاتحاد ، تبعد أربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر عن موسكو ، أما في سيبيريا والشرق الأقصى فلو هتف محافظ فلاديفوستك مثلاً ، على المحيط الهادي ، وهو على مائدة العشاء ، لكان محدثه وزميله في لينينغراد قرب ساموفار الشاي في الإفطار .

ويتساءل المرء : ما الذي يمسك بهذا الاتحاد العملاق ؟

وكيف يتعايش هذا العديد ، الموازييك ، من الشعوب ؟

والاتحاد السوفييتي فريد في عالم اليوم ليس له مثيل : كانت هنالك إمبراطوريات عظمى ضمت كثيراً من الشعوب المتباينة في أرجاء واسعة مترامية وإنما أتت عليها أحداث الزمان . ولن نذهب بعيداً في التاريخ إلى عهود الفرس والرومان والعرب . ففي الأمس القريب كانت إمبراطورية آل هابسبورغ تربط بفيينا في النمسا عشرات الشعوب والقوميات من كل من هبّ ودب في أواسط أوربا ، وكانت إمبراطورية بني عثمان تفرض سلطانها على أمم شتى في قارات ثلاث ، وكانت الإمبراطورية البريطانية لا تغيب عنها الشمس وانفرط منها اليوم خمسون دولة مستقلة ! كلها انهارت تجاه هبة الروح القومية في الأزمنة الحديثة وذهبت مع الريح . والاتحاد السوفييتي صامد ، والراجح أنه سيصمد طويلاً .

ذلك أن الكثيرين توقعوا ، عقب الصدمات المفاجئة الأولى لغزو النازيين الألمان في الحرب العالمية الأخيرة ، أن ينهار هذا الاتحاد وتتفكك أوصاله . فقد أقام الغزاة أمام أبواب موسكو ولينينغراد وبلغوا جبال القفقاس وستاليغراد ، ولكن حدث أن هبت شعوب الاتحاد كلها ، وفيها الشعوب الآسيوية ، في روح عالية من التضحية والتضامن لتدفع الغزاة الدخلاء من ديار الوطن المشترك . وكان أن خرج الاتحاد السوفييتي من تلك الحرب أعظم شأناً وأوسع رقعة بعد أن ضم إليه جمهوريات البلطيق الثلاث ومقاطعة بروسيا وما حولها من ألمانيا ،

ومقاطعة كاريليا من فنلندا ، وعمد إلى « تسوية حدوده » مع جيرانه في بولونيا والمجر ورومانيا ، واسترجع شبه جزيرة ساخالين فضلاً عن ثلاث جزيرات في بحر اليابان !

ما الذي يمسك بهذا الاتحاد ؟ وكيف تتعايش شعوبه ؟

أول ما يخطر في البال أن الثورة البولشوفية صهرت هذه الشعوب في لهيب نيرانها وما عقبها من بطش وإرهاب ... والحق أنه لم يكن بد في البداية من النار لصهر السبيكة وتصفيتها وصياغتها وإنما كان هذا عهداً عابراً لا نفسر تماسكاً دائماً . وليس من قوة على وجه الأرض ، مهما بلغ من حبروتها ، بقادرة على أن تخضع هذه الشعوب في ديارها النائية زمناً طويلاً .

وفي الحرب العالمية الأخيرة ، ويدعوها في روسيا الحرب الوطنية ، لم يتحين شعب من الشعوب ظروف المفاجأة والبلبلة والتراجع في الفترة الأولى من غزو النازيين ليتحرر من الاتحاد أو يتقلب عليه بل أقدمت كلها للدفاع عنه حتى النصر وامتزجت في تلك الحرب دماء عشرين مليوناً من الشهداء من أبناء هذه الشعوب .

وقد يخطر في البال أيضاً أن وحدة المبادىء الاشتراكية ، تمسك بهذا الاتحاد وأن التعاليم الماركسية ــ اللينينية تجمع بين هذه الشعوب ، إذ أن للمشاركة العقائدية أثرها في التقارب والتضامن ولكنها لا تكفي وحدها لقيام الاتحاد : ذلك أن عدد المنتسبين للحزب الشيوعي يقدر بحوالي عشرة ملايين عضوٍ أي حوالي أربعة في المائة من مجموع السكان ، ويذهب الظن إلى أنه لم يسع كل هؤلاء إلى بطاقة الحزب حباً بالشيوعية ، ثم إن أغلب المواطنين لا يعرفون الكثير من التعاليم العقائدية بل إن بعضهم يجهلونها جهلاً تاماً . إذاً ما الذي يمسك بهذا الاتحاد ؟

للجواب يحسن أن نميز في شعوب هذا الاتحاد بين فئتين اثنتين : فئة الشعوب السلافية وفيها أهل روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء ، ولنقل شعوب الصدارة أو شعوب النواة ، وفئة الشعوب الأخرى من الكازاخ والتيرعيز والمونغول والتاجيك والأرمن والتركمان .. ولنقل شعوب الأرداف .

قد يقال إن دستور الاتحاد السوفييتي ينص على تساوي كل الشعوب والقوميات في الحقوق والواجبات لا يفرق بينها وبالتالي لا يجوز تمييز فئة على أخرى . هذا حق ولكن واقع الحال يدعو إلى هذا التمييز : ذلك أن الفروق جد كبيرة بين شعوب هذه الفئة وتلك في ماضيها وحاضرها ، في تطورها وسوية عيشها ، ولا سيما فيما نحن فيه حول موقفها من الاتحاد السوفييتي .

أما أن تتماسك شعوب الصدارة في صلب الاتحاد فهذا أمر طبيعي لا عجب فيه : كان مولد الثورة في ديارها ، وحملة أعلامها من أبنائها وفيها استقرت المراكز الاتحادية للحكم والسلطات وهي من الاتحاد السوفييتي القلب النابض والدماغ المفكر والرأس الموجه .

وإنما يرد السؤال : ما الذي يمسك بشعوب الأرداف في مداراتها النائية حول النواة ؟

بدا لي أن هنالك عوامل كثيرة يدعم بعضها بعضاً وينتج من حاصلتها قوة تشد هذه المجموعة من الشعوب إلى موسكو وتربطها بالاتحاد . وإيجاز هذه العوامل يتيح لنا إطلالة على شعوب « الأرداف » ، زرت بعض أقطارها وتعرفت إلى جماعات من أبنائها ، وفي هذا إنصاف إذ قلما يرد ذكر هذه الشعوب وإنما يقصد الناس ، في الغالب ، إلى جمهوريات الصدارة تحجب ما حولها من الجمهوريات الأخرى .

١ ــ العامل الأول أن هذه الشعوب لا تشعر بيد موسكو من فوقها ولا تتنهد

تدخلاً مباشراً لها في حياة كل يوم .

من البدهي أن الكلمة الأولى والأخيرة ، في القضايا الرئيسية ، تقال في قصر الكرملين في موسكو ، وأن منظمات الحزب المحلية في كل قطر وفي كل مدينة قائمة وساهرة على اتباع هذه الكلمة تسعى لتنفيذها بحذافيرها ، وإنما كان من براعة لينين أن ترك لكل شعب أو لكل جمهورية أو منطقة ، مجالات واسعة من الحريات في الشؤون الداخلية ، في إطار النظام السوفييتي بالطبع . والظاهر أن هذه الشعوب لا تهدف في الغالب إلى أبعد من هذا ، ثم إن موسكو بعيدة ، وفي البعد تتراخى قوة الشد ، وازدد بعداً تزدد حباً !

٢ — إن معظم هذه الشعوب كانت قبل الثورة من أكثر شعوب العالم تخلفاً ، تعيش على هامش الزمان في أوضاع غير مستقرة فوجدت في الاتحاد السوفييتي الأمن والاستقرار وسارت في سبل الحضارة الحديثة فقامت فيها المدارس والجامعات والمسارح والملاعب والصناعات الثقيلة والالكترونية ... مما لم تعرف بعضه في تاريخها . ونتج أن أحوال هذه الشعوب وسوية عيشها ارتفعت بما لا يقاس عما كانت عليه .

٣ — في هذا التطور الحديث حرص النظام السوفييتي على أن يحتفظ كل شعب بتقاليده وأعرافه وفنونه وأزيائه وفولكلوره ... وساعد على إحياء التراث القديم وتطويره وتحسينه ، وأقام في المدن الرئيسية كثيراً من الأبنية للجامعات أو المسارح أو الإدارة العامة ، وعليها طابع العمارة الآسيوي أو الشرقي أو الإسلامي . ولا أزل أذكر كلمة بليغة قالها لي السيد عبد الغفور ، من المشرفين على الشؤون الثقافية في جمهورية تاجيكستان ، قال : لقد فرضت الثورة النظام السوفييتي ، ولكنها لم تفرض النموذج الروسي ، وهكذا تبدل نظام الحكم جذرياً ولكن احتفظ كل شعب بنموذجه الخاص .

ولهذا العامل أثر نفسي عميق : فقد تكون هذه الشعوب تخلت عن سيادتها ، قليلاً أو كثيراً ، ولكنها في إطار تراثها الثقافي والفني تشعر أنها لم تزل تحتفظ بشخصيتها وخصائصها ومخلفات تاريخها تطل بها على العالم في جولات فرقها الفنية .

٤ ـ لم تكن هذه الشعوب لتبلغ هذا القدر من التطور والتقدم لولا المساعدات والإشراف والتوجيه من شعوب الصدارة : وفي هدا تقوم بين شعوب الفئتين السلافية وغير السلافية روح طيبة من التعاون ، ففي المدن الكبرى من جمهوريات الأرداف يعيش عشرات الألوف ممن قدموا من موسكو ولينينغراد وكييف ، يتولون فيها مناصب عليا في ميادين الاختصاص الفنية فلا يترفعون ولا ينعزلون في أحيائهم أو في نواديهم الخاصة ، مما درج عليه الرحل الأبيض حين يقيم فيما وراء البحار ، وإنما يندمجون مع من حولهم . ويتفق هذا السلوك بالطبع مع المبادىء الاشتراكية في الإخاء بين الشعوب ولكنه يرجع ، في الأصل ، إلى ما طبع عليه الروسي ، أو السلافي عموماً ، فهو طيب قريب المنال لا يعرف العرقية ولا التعالي .

وهذا عامل ذو شأن إذ أن هؤلاء السلافيين القادمين من بعيد يشدون من حولهم إلى النواة ويدعمون تماسك الاتحاد فكأنهم قضبان الحديد في الإسمنت المسلح .

٥ ـ وبالمقابل يقيم في الجمهوريات السلافية الملايين من العمال قدموا إليها من الأرداف فلا ينظر إليهم كدخلاء أو مرتزقة أو مواطنين من الدرجة الثانية بل يشعرون أنهم في ديارهم ، فما شهدت في موسكو تجاه المنغوليين مثلاً ما يحيط بالملونين في لندن أو بالأفارقة في باريس .

وما تلقى هذه الجماهير القادمة من بلادها النائية من حسن قبول لدى

السلافيين ترجع أصداؤه ، وكذلك المكاسب المادية ، إلى ديارهم فيساهم هذا في التقريب بين الشعوب ودعم تماسك الاتحاد أيضاً .

٦ — إن هذه الشعوب تعيش في شبه عزلة عن العالم لا صلات مباشرة لها معه فلا تدري ما يدور فيه ولا يدري ما يدور فيها إلا ما تأتي به أجهزة الإعلام بمقدار .

والحادث التالي ذو طابع خاص لا يقاس عليه ولكنه يبين مدى هذه العزلة في أقصى ما تكون :

في رحلة في جبال القفقاس مررت بقرى كثيرة منزوية على الهضاب أو في الوديان ، هنيئاً لأهلها بالعيش فيها : سويسرا على الفطرة إن لم أقل قطعة من الجنة على وجه الأرض . تجمع القوم حولي إذ ندر أن يزورهم غريب . صِباح الوجوه في قسمات أهل الشمال ، أطلق الرجال الشاربين عريضين كبيرين وأسبلت النساء الضفائر الشقراء . أسعدهم أنني مسلم ومن بلاد الشام وقدموا لي اللبن والعسل . أزكى لبن وأشهى عسل تذوقت في حياتي . تحدثت إليهم فبدا لي أن مشاكل العالم الحديث ومصائبه وأوباءه ما بلغت ديارهم ، يعملون منذ أجيال في رعي قطعان الماشية ورعاية مباءات النحل ، وكأن ثورة تشرين مستهم ، من بعيد ، مساً رقيقاً ، فلا يهتمون كثيراً بما يجري في موسكو ولا يشغل بالهم أن ولي القيصر نيقولا رومانوف أو تولى الرفيق نيكيتا خروتشييف .

٧ — إن معظم هذه الشعوب ما عرفت الحرية في تاريخها فكانت تبعاً لهذه الدولة أو تلك ، خضعت لسلاطين بني عثمان ، أو شاهات الفرس ، أو خانات المونغول ، أو قياصرة روسيا ، ولقيت على أيدي هؤلاء وأولئك ما يطاق وما لا يطاق ، ومن عانى نير تلك العهود يجد في تقبل النظام السوفييتي ومسايرته تحرراً وفرجا .

٨ ـ هنالك أولاً وآخراً أثر الدعاية والتوجيه فقد عملت وسائل الإعلام في هذه الشعوب منذ بداية الثورة ، ليل نهار ، حتى عقمتها تعقيماً جذرياً من كل ما يمت إلى الحركات التحررية أو النزعات الإقليمية أو الانتفاضات القومية الوطنية ، وهكذا ظلت ، بحكم الحال والاستمرار ، في إطار الاتحاد السوفييتي وفي مداراته .

ويقضي الحق بالإيضاح أن أكثر العوامل التي أوردتها لا تنطبق على جمهوريات البالطيق الثلاث : ليتونيا وليتوانيا وأستونيا ، ذلك أن هذه البلاد الثلاث كانت دولاً مستقلة قبل الحرب العالمية الأخيرة وإنما ضمت إلى الاتحاد السوفييتي بعد اندلاع هذه الحرب ، ثم إن شعوبها تتمتع بسوية من العيش عالية نسبياً ، وهي بحكم القربى والجوار من الدول السكاندنافية تتطلع إلى أنظمة الحكم فيها ، وبحكم موقعها الجغرافي تستشم نسائم الديمقراطية الغربية .

لكل هذه الاعتبارات لا تشد هذه الأقطار إلى موسكو روابط في مثل تلك القوة من روابط الأقطار الأخرى ، بل تكمن في بعض أوساطها نزعة إلى التحرر يزيد في شأنها أن أكثر سكان هذه الجمهوريات البالطيقية ينتسبون إلى الكنيسة الكاثوليكية الغربية لا إلى الأرثوذكسية الشرقية .

فوق هذه العوامل السابقة كلها هنالك عامل روحي دو شأن تشارك فيه شعوب الاتحاد السوفييتي جمعاء ، هو الاعتزاز بالانتساب إلى الوطن الأوسع رقعة على وجه الأرض ، وإلى دولة يمتد ظل سلطانها ، مادة وعقيدة ، على نصف العالم ويزيد .

قد يقال إن شعوب الصدارة السلافية تتمتع بحصة الأسد من خيرات هذا الوطن ومن مناصب هذه الدولة ، وإنه ما ينال شعوب الأرداف إلا قليل . في هذا شيء من الحق لم يكن منه بد : فقد اندلعت الثورة في المناطقة السلافية ،

ومنها قام الاتحاد السوفييتي ، وشعوبها أكثر وعياً وتطوراً فتولى أبناؤها المهام الكبرى في الحزب والجيش والإدارة . ثم إن شعوب الصدارة تشكل ثلاثة أرباع سكان الاتحاد جميعاً ، وإن رقعة جمهورية روسيا وحدها تبلغ نصف مساحة الاتحاد كله ! ولكن مشاركة شعوب الأرداف ، أو فلنقل حصتها ، آخذة بالازدياد مع مر الزمان بحكم تطورها ورقيها وانتشار التعليم الجامعي فيها .

ومهما يكن فإن مجالات الارتقاء مفتوحة لأبناء الشعوب كلها ، مبدئياً ، على السواء . وقد أفاد منها أولو المواهب والعزم من أبناء شعوب الأرداف . وهنالك العدد العديد من الكرج والتيرغيز والتاجيك والأرمن ... بلغوا مناصب عليا في الجيش والجامعات والسلك الدبلوماسي .

والأهم في الرابطة الوثقى بين شعوب الاتحاد هو هذا الشعور الكامن في قرارة كل مواطن : ثقة في وطن عزيز الجانب ذي آفاق رحبة واسعة ومجالات للسعي والصعود لا حدود لها .

وأصابع اليد متفاوتة ولكنها متماسكة ، متلاحمة . وكذلك شعوب الاتحاد السوفييتي ، فهي متباينة ولكنها متضامنة في يد واحدة هي الأعظم بسطة على وجه الأرض : يتكىء الإبهام منها على أواسط أوروبا وبحر البلطيق ويبلغ الخنصر الشرق الأقصى والمحيط الهادي .

من خيرة أصدقائي في موسكو سفير السويد « رالف سولمان » ، زاد في صلاتنا الودية أني أقمت في بلاده ، وهو عميد السلك الدبلوماسي فقد قضى ثمانية عشر عاماً يمثل السويد في موسكو ويعتبر خبيراً في شؤون الاتحاد السوفييتي ساعد على هذا ، فضلاً عن مقامه الطويل في بلد لبنين أنه يتقن اللغة الروسية وأن زوجه روسية الأصل .

وفي كثير مما سجلته عن الاتحاد السوفييتي كنت أرجع إليه أرجو رأيه

السديد ، وفوق كل ذي علم عليم .

حدثته يوماً عن هذا العملاق وتماسك أعضائه فكان من قوله :

كلما ازددت معرفة بالاتحاد السوفييتي ازددت عجباً في صمود هذا العملاق وتماسكه . وفي ظني أنه لن يصمد طويلاً أمام عاملين اثنين هما سنة التاريخ ورياح الزمان .

أما سنة التاريخ فقد زالت الامبراطوريات العظمى كما ذكرت بعد أن بلغت أوجها وكأنها بشر يولد ويقوى ثم يأتي من بعد قوة ضعف وثم يدركه الموت . ويحدثني قلبي أن الاتحاد بلغ الأوج في مهرجان سنيه الأربعين في العام ١٩٥٧ حين سار وراءه نصف العالم وخشي النصف الآخر سلطانه ثم أخذ من بعدها يتدنى ... أما وإنه لا عاصم من سنة التاريخ فلن يكتب للاتحاد السوفييتي الخلود .

أما رياح الزمان فإنها أخذت تبعث في الشعوب التابعة الروح القومية والنزعة إلى الاستقلال ، وفي الأحداث في العالم شاهد ودليل : من مقاطعة كيبيك في كندا إلى ولاية « البافرا » في نيجيريا من قبل ، ومن كرواتيا والسلوفين في يوغوسلافيا إلى البنجاب والكشمير في الهند حتى جزيرة كورسيكا الفقيرة وجبال التيبت بلغتها هذه الرياح .

كل ما في الأمر أن شعوب الاتحاد السوفييتي التابعة معزولة متخلفة وأنه يخلب أنظارها بهاء النجم الأحمر فوق أبراج قصر الكرملين في سلطانه في الداخل وفي إشعاعه في العالم فإذا ما خبت ضوء هذا النجم وبلغتها رياح العصر هبت تبغي استقلالها .

ولا يعني هذا أن الاتحاد السوفييتي ينفرط برمته وإنما تتحول هذه الكتلة

الثقيلة التي صهرتها في قالب واحد نيران ثورة تشرين ومجازر ستالين ، تتحول إلى نوع من الاتحاد الفيديرالي تتعاون فيه راضية مختارة ، جمهوريات حرة في شؤونها .

استمعت إلى السفير سولمان وذكرت قول شاعرنا :

والليـالي مـن الزمـان حبـالى　　　متقلات يلـدن كل عجيـب

أصحاب السعادة السفراء

سفير الهند

وجدت في سفير الهند في موسكو ، المستر هـ . ك . مينون ، شخصية ممتازة تمثل خير تمثيل ثقافة الهند العريقة وفلسفتها الحكيمة . كنا نتزاور كثيراً وزاد في صلاتنا أن ابنه كان قنصلاً عاماً في دمشق .

كانت تتجلى في حفلات السفارة الهندية ودعواتها البساطة كل البساطة في المأكل والشراب وأدوات المائدة والأثاث وما إلى ذلك ، بينما تتباهى كثير من السفارات بالفاخر والثمين والنادر . وإنما كان يسود حفلاتها ودعواتها روح إنسانية رفيعة .

ومن طريف ما أذكر أن زوجة السفير السيدة مينون كانت تحضر على المائدة الرئيسية طبقاً كبيراً وحيداً يحوي في كل قطاع منه نوعاً من الطعام . فكان الطبق يجمع بين أطعمة شتى مختلفة المذاق والألوان . وفي تلك الأيام بدأت الدعوة لمبدأ التعايش بين الدول على اختلاف أنظمة الحكم فيها عقب مؤتمر باندونغ في أندونيزيا ، فدعونا طبق السفارة الهندية « طبق التعايش » .

قضى السفير مينون سنين طويلة في موسكو وكان آخر السفراء الذين قابلوا ستالين قبيل وفاته ، وروى لي في هذا الحكاية التالية :

لما خرج من قصر الكرملين ، عقب مقابلة ستالين ، هرع إليه المراسلون الأجانب يسألونه عن صحة ستالين ، وكانت الإشاعات تدور إذ ذاك حول سوء حاله ولكن المسؤولين السوفييتيين عمدوا إلى التكتم ، فكان جوابه : إن صحة ستالين حسنة . وبعد أيام معدودة قضى ستالين . واتفق أنه قصد بعد

ذلك إلى بودابست ، وهو معتمد فيها أيضاً ، وقابل رئيس الوزراء المجرية « إيمري ناشي » فقال له في ختام المقابلة :

– أرجو يا سعادة السفير ، إذا سألك الصحافيون عني فلا تقل أن صحتي حسنة !

سفير النمسا

كان سفير النمسا الهر بيشوف من شيوخ الدبلوماسيين يتوج رأسه إكليل من الشعر الأبيض وقد تجاوز سن التقاعد منذ سنين حتى كنا نقول مازحين : إنه كان ملحقاً دبلوماسياً في وفد بلاده إلى مؤتمر فيينا في العام ١٨١٥ !

توفق هذا السفير في كسب صداقات عديدة في أوساط الكرملين وإليه يعود بعض الفضل في تحرير بلاده من الاحتلال الرباعي في أعقاب الحرب العالمية الأخيرة : إذ كانت النمسا مقسمة إلى أربع مناطق احتلتها قوات الاتحاد السوفييتي وأميركا وبريطانيا وفرنسا . وقد هيأت الأقدار وحسن الطالع لهذا السفير أن يقنع حروتشييف بأن النمسا موحدة وحيادية هي خير لموسكو من النمسا تمثل ثلاثة أرباعها دول الغرب ، فكان أن وافق خروتشييف وهو معروف بقراراته المرتجلة ، على عقد معاهدة الصلح مع النمسا ، ومسايرته الدول الحليفة الغربية الثلاث ، فاستعادت النمسا حريتها ووحدتها على أن تلتزم بقدر من الحياد .

والواقع أن النمسا رأت ليلة القدر في هذا الخلاص من التجزئة ومن ربقة الشرق والغرب ، وكان الزميل النمساوي أسعد الناس بهذا يعتبره الذروة وحسن الختام في حياته الدبلوماسية الطويلة ..

ذكر لي الهر بيشوف أنه كان مستشاراً في المفوضية النمساوية في باريز حين غزا أدولف هتلر النمسا عام ١٩٣٨ وضمها إلى الريخ الثالث فألحقت المفوضية النمساوية بالسفارة الألمانية . ولم يكن صاحبنا ليرضى عما حدث في بلاده ، ولا عن النازية أصلاً . فغادر باريز إلى الريف الإفرنسي في الجنوب كلاجىء سياسي واشترى مزرعة قضى فيها سني الحرب ، وروى لي عن مقامه فيها الحكاية التالية :

لما تسلم المزرعة قدم إليه عمدة القرية ووجهاؤها مرحبين وعرضوا خدماتهم

وكان يزين صدره بوسام جوقة الشرف الفرنسي ، وقد سبق أن ناله من قبل ، مراعاة لضيوفه واعتزازاً بموطنه الجديد .

وفي اليوم التالي عمد إلى حلب بقرة في المزرعة فلم يستطع هو ولا زوجه . فأرسل إلى عمدة القرية يرجو إرسال من يساعد في حلب البقرة ، وكان العمدة في حلقة من الفلاحين فدهشوا جميعاً وقالوا :

– كيف يحمل ذلك الوسام وهو لا يعرف كيف يحلب بقرة ؟

سفير تركيا

أتيح لي التعرف إلى كثير من الدبلوماسيين الأتراك فألفيت أنهم ، في الغالب ، ليسوا من أشد الناس مودة للعرب ولا من يعتزون بالانتساب إلى الشرق والإسلام . ولكن السفير التركي في موسكو ذهب بعيداً في بغضه للعرب وفي تنكره للشرق والإسلام ، وفي حماسه الشديد للغرب ... ولحظ هذا بعض الزملاء فكانوا يتجنبونه ، ونقمت عليه ، ولكن واجبات الزمالة كانت تقتضينا المجاملة .

وشاء حسن الطالع أن سنحت لي فرصة شفت ما في صدري وأذهبت غيظ قلبي : قدمت إلى موسكو فرقة « المسرح الوطني الشعبي » الإفرنسية بقيادة الفنان الكبير « جان فيلار » ودعينا إلى حفلة الافتتاح وفيها تمثل الفرقة مسرحية « دون جوان » للمؤلف المسرحي الخالد « موليير » واتفق أن هذه الفرقة قدمت قبل عام إلى بون في ألمانيا ومثلت المسرحية ذاتها وشهدتها ولذافإني كنت أذكر سياق الحوادث فيها ، فضلاً عن أن هذه المسرحية كانت في منهاج الأدب الفرنسي في عهد دراستنا الثانوية يوماً .

في فصل من هذه المسرحية يأخذ الخادم ـ الوصيف على سيده دون جوان إباحيته وتهتكه وفجوره وينعته بأقبح النعوت حتى إذا نفدت النعوت كلها ينهي بقوله له أنه « رأس تركي » !

وكنت أترقب في حفلة موسكو هذا المقطع من المسرحية بفارغ الصبر ، وعيناي لا تفارقان السفير التركي ، وكان قريباً مني ، ولما نكن قد تبادلنا التحية في تلك الأمسية ، فلما وصل الممثل إلى قوله المرتقب ارتعش السفير التركي وأدار نظراته من حوله في اضطراب بليغ ، فتطلعت إليه وأحنيت رأسي مسلماً محيياً باسماً ، وكأنني أسجل كشاهد ما سمعنا وما يدل على نظرة الغرب إلى بني

قومه ، وهو الذي يتحمس للغرب ويتمسح به !؟

وأذكر أن السفير التركي اصفر واخضر يود لو أن الأرض ابتلعته . وما أظنه ينسى تحيتي طول عمره . وما أنساها كذلك !

سفير سيلان

كان سفير جزيرة سيلان ، أو (سري لانكا) كما تدعى اليوم . شخصية فذة في ثقافة رفيعة . سبق له أن حاضر في الفلسفة في جامعة كامبريدج وهو رئيس جامعة البوذيين في العالم . والحق أنه تقمص خير ما في تعاليم البودية من علو النفس ومتانة الخلق .

كانت تربطني به صلات ودية وثيقة ونتزاور كثيراً ، أمتع الروح بمجلسه وأحاديثه وكنت أقول له : سأذكرك طويلاً ولكن ما أظن أني سأذكر اسمك على وجه صحيح ، فكان يضحك إذ أن اسمه هو الدكتور « مالالا مازاكازارا » !

لم يكن لهذا الفيلسوف صلة بالدبلوماسية ، فلما عرض عليه المستر باندارانايكا رئيس الحكومة السيلانية إذ ذاك والزوج المغدور لرئيسة الحكومة من بعده ، منصب السفارة في الاتحاد السوفييتي اعتذر قائلا : إن مبادئ البوذية تحرم علي الشراب ومجالسه ، وحفلات السفارات لا بد فيها من شراب . فكان من جواب الرئيس السيلاني : السفارات برجالها لا بكؤوسها .

وأشهد أن صاحبنا رفع لسفارة هذه الجزيرة الصغيرة شأناً ومكاناً ولو أنه لم تهرق فيها دنان الفودكا والشمبانيا !

السفير المصري

كان سفير مصر في موسكو السيد محمد عوض القوني فوق كل ثناء : مؤمن صادق ودود ، وهو خير من عرفت في السلك الدبلوماسي المصري ، شعرت منذ لقائنا الأول ، حين وصلت إلى موسكو ، أنني سأجد فيه الأخ الأكبر فوق الزميل . وهكذا كان . كنا نجتمع مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع نتشاور في قضايا بلدينا ذات الصلة بالاتحاد السوفييتي ونصدر عن رأي واحد . وقد اتفق أن أعلنت الوحدة بين سورية ومصر بعد مغادرتي موسكو بشهر واحد ولكن سفارتي مصر وسورية كانتا تعملان بروح الوحدة قبل إعلانها . وللزميل المصري في هذا فضل كبير .

كان السيد القوني نحيلاً شاحب الوجه من جراء ألم مرير يعانيه في ساقه اليمنى فكان يتحامل على نفسه والابتسامة والبشر أبداً على وجهه ، والدعابة دوماً في حديثه .

وعلى ذكر النحول وشحوب الوجه كان في طليعة الوفد السوري إلى مهرجان الصداقة والسلام في موسكو السيد فخري البارودي . وفي حفل على شرف الوفد التقى السيد البارودي بالسفير المصري وبالمطران سماحة الممثل الدائم لبطركية أنطاكية وسائر المشرق في الاتحاد السوفييتي . وكان المطران سماحة مديد القامة ممتلىء الجسم متورد الوجنتين يشع صحة وعافية . وللسيد البارودي ، المجاهد الوطني المعروف ، أسلوبه في النكتة والفكاهة لا يبارى فيهما ، فأخذ يقلب نظراته بين السفير والمطران ثم قال لسماحة المطران :

— خريت العين .. الله يتم عليك ... ما كنت أظن أن الكنيسة في موسكو أدسم من السفارة .

وتقضي التقاليد الروسية بأن يشرب الداعي نخب ضيوفه فيأتي على ما في

الكأس في جرعة واحدة حتى القطرة الأخيرة ، ولما حضرت دعوة العشاء التي أقامها الزميل المصري بمناسبة قدومي إلى موسكو أكبرت إقدامه على أنخاب لا عداد لها : نخب لسورية ، ونخب للاتحاد السوفييتي ونخب لمصر ونخب على شرف كل ضيف ونخب السلام ونخب لكفاح الشعوب ... والاستزادة في الأنخاب دلالة على الصداقة والإكرام والروس يبالغون فيها ، ولكني عجبت كيف يستطيع ، وهو ضعيف البنية أن يكرع كل هذه الكؤوس من الفودكا !.. حتى تبين ، فيما بعد ، أنه تدبر الأمر ، في مثل هذه الدعوات ، مع الساقي فكان هذا يملأ كؤوس الضيوف بالفودكا ثم يتحايل ليملأ كأس السفير بالماء القراح !

وبعد أن قضى السيد القوني حوالي سبع سنوات في موسكو نقل إلى نيويورك ممثلاً دائماً لمصر في هيئة الأمم المتحدة . وجاءت حرب الستة أيام فقاسى من جرائها في مجلس الأمن الدولي مواقف مريرة حتى استدعاه الرئيس جمال عبد الناصر ليستجم في وطنه وأسند إليه منصب وزير السياحة .

سفير لبنان

كان يمثل لبنان في موسكو السيد عبد الله النجار من أكابر بني معروف في بيت مري المطلة على بيروت ، وكان يتغنى بمحاسنها . وتمثيل لبنان في موسكو كان وحيداً في مستواه إذ كان له مفوضية بينما لكل الدول الأخرى سفارات ، وكان في هذا دلالة على تحفظ لبنان في صلاته مع الاتحاد السوفييتي ، وكان زميلنا اللبناني يتندر في هذا ويقول :

– إذا حاء ذكر السفير لم تدر أي سفير أما إذا ذكر الوزير المفوض فأنا علم ليس سواي !

وكان السيد النجار يهوى الأدب والشعر ويتعمد الإجادة في خطبه نصاً وإلقاءً ، واتفق أن أقيم حفل بمناسبة مهرجان الصداقة العربية – السوفييتية توالى فيها الخطباء وكانت الآنسة « ماشا » ، وهي من خيرة التراجمة الروس المعتمدين في موسكو – تتولى الترجمة . وجاء دور الزميل اللبناني . والظاهر أنه أراد في فاتحة خطابه التأكيد على تضامن لبنان مع البلاد العربية الشقيقة ، وعلى سيره معها جنباً لجنب في الركب القومي فاستهل خطابه ببيت الشعر الجاهلي :

وهل أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فبهتت الترجمانة ماشا وارتج عليها . وتطلع إليها السيد النجار مشيراً بيديه يشجعها على الترجمة فأجابته مشيرة بيديها تبدي ارتباكها .. وأعاد الخطيب بيت الشعر ثانياً على مهل ثم ثالثاً فما زاد الترجمانة إلا حيرة وحرجاً ، وغشي الحفل وجوم واضطربت الآنسة ماشا .. حتى أنقذ الموقف السفير المصري صائحاً :

– ترفق بها يا عبد الله بك ... نحن العرب ما فهمناش ..

وكان من سرعة خاطر الترجمانة ، أنها وجدت في هذا القول طوق النجاة فبادرت إلى ترجمته إلى اللغة الروسية فانفجرت في القاعة عاصفة من الضحك والتصفيق !

الفهرس

للمؤلف

- الراديو والتلفزة .
- دنيا المغتربين .
- صدى السنين الحاكي : من الأسفار والسفارات .
- لؤلؤة مايوركا : طرائف شهدتها في أنحاء العالم .
- أربع سنين في البرازيل وأخواتها العشرين :
  ذكريات وطرائف عن جمهوريات أميركا اللاتينية وشعوبها .
- حيث تشرق الشمس في منتصف الليل ـ بلاد الشمال كما عرفتها .
  (قيد الطبع)

السعر : ٢٢٥ ل . س